الفصل الرابع

الوجود الأجنبي أواخر العصر المملوكي

- **تدهور الأوضاع الداخلية وأثره على** (قوة الدولة – سياسة الاحتكار التجاري داخليا – سياسة الاحتكار التجاري خارجيا وأثره على الوجود الأجنبي).
- **الخطر البرتغالي على مصر** (الكشف البرتغالي استكمال للفكرة الصليبية – مراحل اكتشاف الطريق الجديد – الأثر الاقتصادي على مصر - الأثر الاقتصادي على الأجانب – موقف السلطات المملوكية والأجنبية من الخطر البرتغالي).

obeikandl.com

تدهور الأوضاع الداخلية وتأثيره على القوة السياسية للدولة:

ثمة حقيقة واضحة اجتمع عليها مؤرخو العصر المملوكي المعاصرون والمحدثون وهى أن هناك فرقا شاسعا بين فترة الصعود والنمو المتمثلة في الدولة المملوكية الأولى (البحرية) وبين فترة الهبوط والاضمحلال المتمثلة في الدولة المملوكية الثانية (الجراكسة)، ورغم تعرض الدولة الأولى للتدهور والانحلال والاضطرابات، إلا أنها كانت قادرة على التصدي لمثل هذه الظروف داخليًا وخارجيًا، وعلى العكس تماما كانت الدولة الثانية، حيث تطرق إليها الفساد والإهمال في كل شئون الدولة، وبدأت عوامل الهدم تنهش في بنيان الدولة منذ النصف الثاني من القرن الخامس عشر الميلادي.

أصبحت الحكومة غير مستقرة، وغير جديرة بثقة المصريين، حيث توالى على الحكم أمراء وسلاطين الواحد تلو الأخر بالعنف والاغتصاب وبث المؤامرات للإيقاع بالآخرين، فأدى إلى تغيير أعداد كثيرة منهم في وقت واحد، بالإضافة إلى أنهم كانوا صغاراً في السن، تحكم فيهم الأوصياء الذين قبضوا على السلطة ومقاليد الأمور، مما كان له الأثر السيئ على الدولة وأحوالها[٥٨٢].

وقد اصطبغ هذا العصر بصيغة خاصة من عدم الاستقرار السياسي والاقتصادي والاجتماعي حيث انتشرت الفتن والثورات والاضطرابات، إما رغبة في تولى السلطة[٥٨٣]، أو في الحصول على زيادة مالية للأمراء والمماليك الجلبان[٥٨٤]،

([٥٨٢]) قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك (دار عين للنشر، القاهرة، ١٩٩٨م)، ص ١٤٦؛
Sydney Fisher , the middle east , (U. S. A , 1990) , p. 130.

([٥٨٣]) سعيد عاشور، العصر المماليكى في مصر والشام (دار النهضة المصرية، ١٩٧٦م)، ص ١٨١؛ إبراهيم على طرخان، مصر في عصر دولة الجراكسة (دار النهضة المصرية، ١٩٦٢م)، ص ٣٦.

([٥٨٤]) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك (تحقيق محمد مصطفى زيادة، دار الكتب، ١٩٤١م)، ج٤، ق٢، ص١٠٢٦ – ١٠٢٧؛ ج٤ ق٣، ص ١٠٩١؛ جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى، منتخبات من حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور (تحقيق وليام بيير، كاليفورنيا، ١٩٣٠م)، ج١، ص ٤ – ٥؛ ج٢، ص ٢٠١ –٢٠٥؛ محمد بن أحمد بن إياس

وبالطبع كان السلطان المملوكي الضعيف يصب جام غضبه على الشعب، وذلك بفرض الضرائب الباهظة، والمصادرات بدون أسباب من أجل سد العجز المادي في الخزانة السلطانية[٥٨٥]، وتلي ذلك اتباع سياسة نقدية متغيرة باستمرار، فأصاب الناس الضرر العام من جوانب متعددة، بالإضافة إلى هجمات العربان على المدن والقرى الريفية، مما كان له الأثر السيئ على القوة السياسية للدولة.

اتجه سلاطين دولة المماليك الجراكسة إلى الاشتغال بالتجارة والنزول إلى ميدان الاقتصاد بهدف زيادة موارد الدولة، وللخروج من الأزمة المالية التي شهدتها البلاد أواخر العصر المملوكي، ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل أصدر عدة مراسيم جعلته التاجر الوحيد في الدولة، وأصبح الاحتكار التجاري نظاما سارت عليه الدولة، حيث احتكر السلطان بعض السلع الهامة مثل الغلال والتوابل والبخور والسكر، التي كانت تدر أرباحا طائلة، وفرض هذه السلع على التجار الوطنيين والأجانب بأسعار يحددها بنفسه، مما أدى إلى ارتفاع أثمانها ارتفاعا فاحشا، الأمر الذي أنزل أبلغ الضرر بالأجانب بوجه خاص، وبالناس بوجه عام.

وقد بلغت سياسة الاحتكار التجاري أشدها على عهد السلطان الأشرف برسباى أما عن الأسباب التي أدت إلى وجود هذا النظام فمن الباحثين من يربطها بفساد النظام الإقطاعي في أواخر الدولة المملوكية الأولى وعجزه عن الوفاء بالتزامات الدولة بعد أن أهملت شئون الري والصرف[٥٨٦]، فقد كانت دولة المماليك دولة إقطاعية، تقوم بتوزيع الأراضي الزراعية على السلطان وكبار الأمراء وأجناد الحلقة والعربان والتركمان [٥٨٧]، وكان الإقطاع أمرا شخصيا، فقد تمتع صاحبه

المصرى، بدائع الزهور في وقائع الدهور (تحقيق محمد مصطفى، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٨٢م)، ج٢، ص ٢٣٤، ٢٩١، ٣٤٢.

([٥٨٥]) سعيد عاشور، العصر المماليكى، ص ٣٠٧؛ نعيم زكى، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب (القاهرة، ١٩٧٣م)، ص ٣٣٤.

([٥٨٦]) شهاب الدين أحمد بن على القلقشندى، صبح الأعشى في صناعة الإنشا (القاهرة،١٩١٨م)،ج٣،ص ٤٥٨.

([٥٨٧]) المقريزي، السلوك، ج١ق١، ص ٥٠٩.

بغلاته وإيراده، فكانت الإقطاعات بمثابة الرواتب التي يحصل عليها الأمراء مقابل تجنيدهم في الجيش المملوكي [٥٨٨].

على أن هذا النظام لم يظل على حاله من الثبات والإحكام، فقد تطرق إليه الفساد والخلل، حيث تنازل الأمراء والأجناد عن الإقطاع عن طريق البيع أو المقايضة والتنازل، مما أدى إلى دخول كثير من أرباب الوظائف الدينية وكثير من الكتاب وأرباب الصناعات والحرف والأثرياء ضمن الجيش، فأدى ذلك إلى ضعف الجيش وانهيار دعائمه[٥٨٩]، وهذا معناه ضياع المورد المادي لإعداد الجنود، فأضطر السلطان إلى اتباع وسيلة جديدة لسد العجز المادي وتغطية نفقات الجيش، ومن ناحية أخرى كان السلطان المملوكي في حاجة ماسة إلى المال لكثرة الحملات الحربية التي أرسلها إلى قبرص ورودس[٥٩٠]، والحملات والاستعدادات العسكرية لحماية السواحل المصرية من غارات القراصنة، والتي أرهقت الخزانة واستهلكت أموالا كثيرة، بالإضافة إلى الخسائر المادية التي لحقت بالجيش والأسطول المصري أثناء فشله في هذه الحروب وبالتالي كان السلطان مضطرا لإتباع سياسة جديدة لجمع الأموال لسد نفقات الجند الثائرين ولتغطية نفقات الحملات العسكرية.

أتبع السلطان الأشرف برسباى سياسة الاحتكار التجاري إذ أحتكر صناعة السكر وتجارته الداخلية ثم تجارة الخشب والمصنوعات المعدنية [٥٩١]، ثم ما لجأ إليه السلاطين من المتاجرة الشخصية فيما عرف باسم المتجر السلطاني، وفيه تنافس السلاطين بتجارتهم وتحكموا في الأرزاق وعملوا لهذه التجارة ديوانا عرف بديوان

([٥٨٨]) السيد الباز العربنى، الإقطاع الحربي بمصر (القاهرة، ١٩٥٦م)، ص ٢٢؛ عبد المنعم ماجد، نظم دولة المماليك ورسومهم (الأنجلو المصرية، ١٩٦٤م)، ج١، ص ٧٠.

([٥٨٩]) نعيم زكى، المرجع السابق، ص ٣٣٤.

([590])Cambridge of Islam , (London , 1970) , vol 1 , p. 225 – 226 ; MM Ziada , the
foreign relations of Egypt in the fifteenth century (Liverpool , 1930) , p. 229.

([٥٩١]) نعيم زكى، المرجع السابق، ص ٣٣٥.

المتجر[٥٩٢]، ثم ما لبث أن أحتكر التجارة الشرقية بعد أن أغرته مكاسب التجارة الداخلية، ففي عام ٨٣٢هـ/ ١٤٢٨م أمر السلطان بتجهيز مال إلى جدة ليشترى به الفلفل والتوابل، وأمر ألا يباع لأحد غيره، وألزم جميع التجار ألا يتوجه أحد ببضاعته إلى الشام ولا غيرها بل إلى القاهرة، ولا يباع إلا بالإسكندرية إلا بعد أن يكتفي السلطان، وألزم الأجانب بشراء الفلفل بزيادة ٥٠ دينارًا فاشترى الأجانب شيئًا ورجعوا بأكثر بضاعتهم وظل يزداد الأمر في كل سنة [٥٩٣].

كما حاول التخلص من تجار الكارم حيث ألزمهم بالمجيء إلى أسواق القاهرة بدلا من موانئ جدة وعدن، و استولى على الفلفل،ومنع أي تاجر من البيع أو الشراء بدون إذنه[٥٩٤]، وبذلك يضمن أن التجار سيدفعون ضريبة دخول القاهرة، ثم ضريبة دخول الإسكندرية، وفي نفس الوقت يبعد بين تجار الكارم والأجانب بعد أن لاحظ بينهما تجاوبا واضحا.

هذا بالإضافة إلى مصادرة أموال وبضائع تجار الكارم في مناسبات عديدة، ففي عام ٨٣٢هـ/ ١٤٢٨م صادر مبلغًا ضخمًا من التاجر الكارمى نور الدين التبريزي قدر بحوالي ١٠٠٠.٠٠٠ دينار بسبب وشاية رجال الدولة ضده [٥٩٥]، كما أشتط الناصر محمد بن قايتباي في المصادرات عام ٩٠٣هـ/ ١٤٩٧م لينفق على المماليك الجلبان[٥٩٦]، وفي سنة ٩٠٧هـ/ ١٥٠١م صادر الأمير طراباى رأس نوبة النواب – بأمر من السلطان الغوري – تجار الكارم الذين توفى منهم الكثير بسبب العقاب الشديد أثناء المصادرات، ومن عاش منهم كان فقيرا مما أدى إلى هجرتهم خوفا على

([٥٩٢]) المقريزى، السلوك، ج٤ ق٢، ص ٧٩١؛ الحافظ بن حجر العسقلاني، إنباء الغمر بأنباء العمر (دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٦م)، ج٨، ص ١٧٤.

([٥٩٣]) المقريزى، نفسه؛ ابن حجر، نفسه، ص ١٧٥.

([٥٩٤]) شمس الدين محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (بيروت، ب. ت)، ج٦، ص ٦٤.

([٥٩٥]) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٣، ص ٣٩٤.

([٥٩٦]) نفسه، ج٤، ص ١٦.

أنفسهم[٥٩٧]، وبلغت قسوة المصادرات مداها إلى حد جعل بعض تجار الكارم يتمنون على أنفسهم بالموت حتى يستريحوا مما هم فيه من الغرامات والخسائر والظلم [٥٩٨].

وقد أجمع بعض المؤرخون المحدثين على أنه كان هناك مائتا تاجر كارمى في مصر في عصر الناصر محمد والمؤيد شيخ الذي كان يرحب بهم ويقترض منهم الأموال، ولكن بعد وفاته تدهورت أحوال تجار الكارم، وكادوا أن يختفون من الأسواق بسبب سياسة الاحتكار التجاري ومشاركة السلطان لهم في أرزاقهم، مما قلل من أرباحهم،وقلل من الامتيازات التي كانوا يحصلون عليها، ولم يعد يظهر في الأسواق المصرية اسم تاجر الكارم، بل اسم تاجر السلطان فقط، وذلك لهجرة البعض ولتقاعس البعض، الأخر عن العمل واستسلم لمصيره البائس، وأصبح مجرد عميل للسلطان فقط [٥٩٩].

ولا شك أن هذه السياسة كان لها الأثر السلبي على الأجانب في مصر، وعلى علاقاتهم بالسلطان، فعندما أمر السلطان برسباى ببيع الفلفل السلطاني إلى التجار الأجانب بسعر معين، وبعد تحميله في السفن أمر برفع السعر، فأضطر إلى دفع مبالغ أخرى،لأنه لم يسمح لهم بالرحيل بدون دفع الباقي، ولكن القنصل الأجنبي تكفل بتسديد الثمن المطلوب[٦٠٠].

وبالغ السلطان في تعسفه ضد الأجانب، حيث منع إقامة القبان لوزن بضائع التجار، وامتنع الناس عن بيع التوابل للتجار الأجانب، وألزمهم بشراء الفلفل السلطاني بمائة وعشرين دينارا للحمل الواحد في، حين كانت قيمته مع التجار ثمانين دينارا

([٥٩٧]) أحمد عبد الرازق، الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى (دار الفكر، ١٩٩٠م)، ج٢،ص ٢٥٢.

([٥٩٨]) صبحي لبيب، >سياسة مصر التجارية في عصري الأيوبي والمملوكي<، (المجلة التاريخية المصرية، ج٢٩، ١٩٨٢م)، ص ٤٣ ؛عزيز سوريال عطية، الحروب الصليبية (ترجمة فيليب صابر سيف، القاهرة، ١٩٩٠م)، ص ١٨٨؛

Ashtore lighu , studies on the levant trade (London , 1978) p. 27 – 28.

([٥٩٩]) المقريزي، السلوك، ج٤ ق٢، ص ٧٣٥؛ Ziada , op. Cit , p. 230.

([٦٠٠]) المقريزي، نفسه، ص ٧٢١.

فقط، فأخذوا جزءا منه و امتنعوا عن شراء الباقي وعادوا إلى بلادهم وتركوا كميات كبيرة من الفلفل في ميناء الإسكندرية فشمل ذلك الضرر والخسارة لكثير من التجار المسلمين والأجانب [٦٠١].

وإزاء هذه القسوة أضطر قنصل الجنوية عام ٨٣٢هـ/١٤٢٨م ومعه بعض التجار الجنويين إلى الهرب دون دفع الديون المتبقية عليهم للديوان السلطاني، والتي قدرت بحوالي عشرين ألف دينار، نتيجة لارتفاع الأسعار، وعند رحيلهم في البحر تقابلوا مع مركبين قادمين من بلادهم، فشرحوا لهم الوضع في ميناء الإسكندرية فأضطر الجميع إلى العودة[٦٠٢].

وفى عام ٨٣٣هـ/١٤٢٩م ألزم السلطان الأشرف برسباى الأجانب بشراء حمل الفلفل بمائة وثلاثين دينارا، رغم أن سعره في القاهرة كان خمسين دينارا [٦٠٣]، وبالطبع تذمر التجار الأجانب، وحاولوا تقليل الثمن، ولكنهم في النهاية اضطروا إلى الشراء ولكن بكميات قليلة، لأنهم لن يستطيعوا تصريف أكثر من ذلك في أسواق أوربا بالأسعار المرتفعة رغم احتياج الغرب للفلفل، مما سبب خسارة فادحة لهم، ولم يحقق الربح المطلوب، وتزايد الأمر سوءا في عام ٨٣٥هـ/١٤٣١م حينما أمر السلطان تجار القاهرة والإسكندرية بشرا ء الفلفل لصالحه بخمسين دينارا، في حين أنهم عادوا لشرائه منه بسبعين دينارا، كما أمر بألا يبيع أحد الفلفل للتجار الأجانب القادمين إلى الإسكندرية سواه[٦٠٤].

وبناءا على ذلك ضج الأجانب و استاءوا من هذا التعسف والظلم، واشتكوا للسلطان، وجاء أول احتجاج من جانب تجار قطا لونيا عام ٨٣٦هـ/١٤٣٢م حينما أرسلوا قنصلهم في دمياط للسلطان برسباى، وأخبره برفض رعاياه شراء الفلفل بالسعر

([٦٠١]) ابن حجر، إنباء الغمر، ج٨، ص ١٧١.

([٦٠٢]) المقريزي، السلوك، ج٤ ق٢، ص ٨٢٤؛

Stanly lane pool , A history of Egypt in the middle ages (London , 1901) , p. 340.

([٦٠٣]) المقريزي، نفسه، ص ٨٦٩.

([٦٠٤]) نفسه، ص ٨٨٥.

المرتفع وهدده، بالانتقام إذا لم يتراجع عن موقفه، واستنكر ما تقوم به السلطات المحلية تجاه الأجانب في الموانئ المصرية، ولكنه لم يصغ إليه واعتبر تهديده إساءة وإهانة كبيرة للدولة وحاكمها، فأمر بمصادرة سلع الجالية القطالونية في الإسكندرية بعد أن حملهم مسئولية الغارة التي شنها القراصنة على سفينة إسلامية قرب طرابلس الشام[٦٠٥].

ثم تلي ذلك رسالة من ملك قطالونيا مليئة بعبارات الجفاء والقسوة والشدة، وذلك بسبب إلزام الأجانب بشراء الفلفل السلطاني، فغضب السلطان ومزق الرسالة، ولم يسع لتغيير الوضع وتحسين الأحوال[٦٠٦]، حاول التجار الأجانب شراء الفلفل من نائب الإسكندرية بسعر مائة دينار بدلا من مائة وعشرين كما حدد السلطان، ولكنه عاد ورفض السعر السابق، فاضطروا للرحيل بدون شراء حمل واحد فأدى ذلك إلى كساد البضائع في ميناء الإسكندرية[٦٠٧].

كذلك استاء البنادقة من سياسة الاحتكار التجاري، و تقدمت البندقية بشكوى إلى السلطان برسباى عن طريق القنصل البندقي الذي طلب من السلطان إبطال هذه السياسية، ولكنه أصر على موقفه ورفض كل الاحتجاجات فأدى ذلك إلى عزم البنادقة على قطع علاقاتهم بمصر، وأرسلت الحكومة البندقية أسطولا إلى الإسكندرية لإنهاء أعمال التجارة بها، فلما رأى برسباى أن هذا القرار سوف يضعه في مأزق شديد منحهم امتيازات جديدة ما عدا احتكار الفلفل فأضطر البنادقة للعودة إلى الموانئ المصرية[٦٠٨].

وما لبث أن تأزم الموقف مرة أخرى، فقد عاملت السلطات المملوكية الأجانب

([٦٠٥]) نفسه، ص ٩١٤.

([٦٠٦]) ابن حجر، إنباء الغمر، ج٨، ص ٣٠٥ – ٣٠٦.

([٦٠٧]) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي (دار المعارف، ١٩٨٩م)، ص ٢٥؛ رشيد باقة، العلاقات التجارية بين فلورنسا وسلطنة المماليك في القرن ١٥ م (ماجستير غير منشور، آداب القاهرة، ١٩٨٩م)، ص ٢٥؛ Ziada , op. cit. p 231.

([٦٠٨]) رشيد باقة، نفسه، ص ٢٦.

بالعنف والشدة وأجبرتهم عام ٨٤٠هـ/١٤٣٦م على شراء الفلفل بسعر مرتفع، وعندما رفضوا الشراء طردهم السلطان من الثغور المصرية، وعادوا إلى بلادهم تاركين وراءهم أموالهم وأمتعتهم وبضائعهم، ثم صب جام غضبه على الأجانب المقيمين في الديار المصرية وحبسهم ولم يطلق سراحهم إلا في عهد السلطان جقمق الذي أبدى تعاطفا مع الأجانب[٦٠٩].

وجاء عهد قايتباي يحمل في طياته تأزم العلاقات وتدهور الأحوال، فلم يختلف عن سلفه حيث رفع سعر الفلفل إلى مائة وعشرين دينارا، ولكن التجار الأجانب لم يستطيعوا الدفع، فأمر بحبسهم في الفندق لمدة يومين، ولم يطلق سراحهم إلا بعد دفع مائة دينار للحمل[٦١٠]، ثم عاد مرة أخرى وأمر البنادقة بشراء الفلفل بسعر مائتين وعشرة دينار للحمل كل عام،فوافقوا على ذلك (٢). وقد حاولت البندقية الاعتراض على سعر الفلفل، فأرسلت سفارة إلى السلطان أحمد بن إينال عام ١٤٦١م، وعقدت معه معاهدة تجارية، وفيها أعفى البنادقة من بعض الجمارك، ولكنه أصر على بقاء سعر الفلفل مرتفعًا[٦١١].

كما شهد عصر الغوري استمرارا للمأساة الاقتصادية، حيث أنه ضغط على الأجانب لشراء ثلاثمائة حمل فلفل مخالفا بذلك نص المعاهدة السابقة مع السلطان قايتباي وأحمد بن إينال، ولكنهم استطاعوا الوصول إلى اتفاق جديد يسمح لهم بشراء مائتين وخمسين حملا، مما أضطرهم إلى الاقتراض، ولكنهم لم يستطيعوا الدفع فقبض عليهم وعلى القنصل في الإسكندرية وحبسهم في القاهرة[٦١٢].

ولذا تبادلوا السفارات والرسائل حتى تم الاتفاق مرة أخرى عام ١٥٠٧م على عدم إجبار الأجانب على شراء أكثر من مائتين وعشرة حملا من الفلفل السلطاني

---

(٦٠٩) نعيم زكى، المرجع السابق، ص ٥٥ – ٥٦.

(610)Ziada , op. cit. p 248.

(611)Deeping , Histoire du commerce enter le levant et l' Europe de puis des les
croissades (Paris , 1830) , 218 – 219.

(612)Ziada , op. cit. p 250.

بسعر الحمل الواحد ثمانين دوكة فقط، وإذا رغب في رفع السعر فلا يلزم التجار الأجانب بشرائه [٦١٣]، كما تمدنا سفارة دمينكو تريفزانى البندقي إلى القاهرة عام ١٥١٢م بمعلومات هامة، تدل على مدى الاضمحلال السريع للتجارة الأجنبية والمصرية، فقد شكا المصريون إلى السلطان من قلة السفن البندقية في الموانئ المصرية والشامية حيث لم يشاهدوها إلا مرة كل عامين، ولا تزيد عن ثلاثة سفن في العام، وأنهم كانوا يستوردون كميات كبيرة من النحاس والزيت، أما الآن فقد قلت الكمية، كما كان يبقى في الإسكندرية بعد رحيل السفن التجارية خمسة عشر تاجرا أجنبيا يشرفون على التجارة، أما الآن فلا يوجد سوى أربعة أو ستة عملاء فقط، وقد كانت المخازن مليئة بحوالي ٣٠٠٠٠٠ دوكة، أما الآن فهم يشترون أقل من ذلك بكثير، ثم فسر له السفير البندقى أن السبب في ذلك راجعا إلى عدم وجود الحرية التجارية للأجانب في الموانئ المصرية، وأكد له أن هذا الوضع سوف يسبب خسارة للطرفين[٦١٤].

كما احتجت مملكة أراجون وقطالونيا على هذه السياسة، وذلك بشن غارات وهجمات على الشواطئ المصرية وعلى السفن الإسلامية في البحر المتوسط، وقام رعاياها بأعمال السلب والنهب اعتراضا على السياسة الخاطئة التي أتبعها السلاطين المماليك تجاه الأجانب[٦١٥]، ولا شك أن هذه السياسة أيضا قد أدت إلى قلة أعداد الأجانب الوافدين إلى مصر بصفة عامة من جميع الطوائف وتدهورت منظمة الفندق حتى وصل عددهم إلى ثلاثة فنادق فقط في مدينة الإسكندرية[٦١٦].

أما عن أعداد الجاليات الأجنبية في مصر في ذلك الوقت فقد تأثرت بالتدهور العام في الدولة وبالسياسة الخاطئة التي أتبعها السلاطين المماليك تجاه الأجانب، حيث

([٦١٣]) سمير الخادم، الشرق الإسلامي والغرب المسيحي عبر العلاقات بين المدن الإيطالية وشرقى البحر المتوسط (بيروت، ١٩٨٩م)، ص ٢٧٠.

([٦١٤]) شارل ديل، جمهورية البندقية (ترجمة أحمد عزت عبد الكريم، توفيق اسكندر،دار المعارف، ١٩٤٨م) ص ١٥٢؛ نعيم زكى، المرجع السابق، ص ٤١٢ – ٤١٥.

([615])Stanly lane pool , op. cit , p. 340.

([٦١٦]) صبحي لبيب، الفندق ظاهرة سياسية واقتصادية وقانونية (ندوة مصر وعالم البحر المتوسط، دار الفكر للدراسات، القاهرة، ١٩٨٥م)، ص ٣٠٠.

قلت الجنسيات الأجنبية الوافدة إلى مصر، والتي اقتصرت على البنادقة والجنوية والقطالونيين، أما باقي الجنسيات الأخرى فلم يعد لها وجود في الديار المصرية، وإذا شوهدوا هناك فذلك كان عند مرورهم بها فقط، فلم يعد لهم بها وكالات أو فنادق [٦١٧]، حتى وصلت إلى ثلاث فنادق فقط مع نهاية القرن الخامس عشر الميلادي / التاسع الهجري[٦١٨].

ثم ما لبث أن قل وجود القطالونيين في الإسكندرية نتيجة للعداء الشديد بين المماليك والقراصنة القطالونيين، مما أثر سلبيا على القطالونيين في المدن المصرية، ولهذا وجد الرحالة فليكس فابرى الفندق القطالوني خاويا تقريبا[٦١٩]، ولكن قنصلهم كان موجودا بالإسكندرية وقد حاولت قطالونيا تحسين العلاقات ولكنها لم تستطيع تحقيق ذلك فأضطر القنصل إلى مغادرة البلاد.

أما البنادقة فقد تحملوا في البداية تعسف وظلم السلطات المحلية والضرائب والمكوس الباهظة في الجمرك، وكانت جاليتهم بالإسكندرية تعد أكبر الجاليات الأجنبية [٦٢٠]، ولكن وسط القلاقل والاضطرابات وتقلب الحكام على السلطة والأخطار الداخلية والخارجية كانت حياة هؤلاء الأجانب معرضة دائمًا للخطر، وكثيرا ما تعرضوا للمصادرة والسلب والنهب أو للضرب والشنق في حالات أخرى، ومع اكتشاف البرتغال لطريق رأس الرجاء الصالح وتوفر المنتجات الشرقية في أسواق لشبونة لم يعد هناك داع لمجيء الأجانب إلى مصر، والاضطرار لشراء السلع بأسعار مرتفعة، أو التعرض للضغط والعنف، فقلت أعداد السفن القادمة إلى مصر حاملة الأجانب من جميع الطوائف،وهذا سوف نناقشه في الصفحات التالية.

([٦١٧]) هايد، تاريخ التجارة في الشرق الأدنى الإسلامي (ترجمة أحمد رضا، عز الدين فودة، الهيئة العامة، ١٩٩١م) ج٣، ص ٣٦١.

([٦١٨]) صبحى لبيب، الفندق ظاهرة، ص ٣٠٠.

([619])Felix Fabri , le voyage en Egypte (Paris , 1975) p. 163.

([620]) LOC. CIT

الخطر البرتغالي وأثره على الجاليات الأجنبية في مصر:

لا شك أن القوة الاقتصادية تشكل إحدى الدعامات الأساسية التي تستند عليها أية دولة، وإذا تطرق إليها الضعف كان ذلك نذيرًا سيئًا لتداعى الدولة، ولقد تمتعت الدولة المملوكية بقوتها الاقتصادية لفترة طويلة، منذ نشأتها حيث استطاعت فرض سيطرتها الكاملة على طرق التجارة الداخلية والخارجية، مما أدى إلى تكدس الثروات والأموال في خزائن الدولة، وكان ذلك سببا في انهيارها، حيث تمكن الطمع والجشع من نفوس الحكام فاتبعوا سياسة الاحتكار التجاري، وفرض رسوم جمركية مرتفعة على التجار الأجانب، وفي نفس الوقت نشأت دول جديدة ناشئة تسعى إلى النمو والتطور، وذلك عن طريق السيطرة على تجارة الشرق لترتب على ذلك القضاء على مكانة مصر الاقتصادية وإضعافها سياسيا وعسكريا.

فمنذ طرد الصليبين من بلاد الشام وهم يحاولون استرجاع الأراضي المقدسة المسيحية في بيت المقدس، وقد وجدوا ضالتهم في ملك الحبشة المسيحي، حيث قام رهبان الحبشة في بيت المقدس بدور الوسيط بين ملكهم وملك البرتغال، الذي كان يهدف إلى نشر الدين المسيحي في أفريقيا، وحماية العالم المسيحي متخذا بذلك مسألة الحماية ستارا للعمل الصليبي، فنجده حاول الاتصال بملك الحبشة قبل اكتشاف الطريق التجاري الجديد[٦٢١].

ولكن لم يحدث تحالف حقيقي إلا بعد معرفة طريق رأس الرجاء الصالح، وبعد نجاح البرتغاليين في إنزال الهزيمة بالبحرية المملوكية في موقعة ديو البحرية سنة ١٥٠٩م، فعندئذ أرسلت هيلانة ملكة الحبشة سفارة إلى ملك البرتغال لعقد اتفاقية حربية ضد المسلمين[٦٢٢].

في حين تابع القراصنة أعمال السلب والنهب والإغارة على السواحل

([٦٢١]) أحمد دراج، تاريخ المماليك والفرنج في القرن ١٥ م (دار الفكر، ١٩٦١م)،ص ٨٥.

([٦٢٢]) سعيد عاشور،الحركة الصليبية (الأنجلو المصرية، ١٩٦٣م)، ج٢، ص ١٢١٢ –١٢١٣؛ هاو سونيا، في طلب التوابل (ترجمة محمد رفعت،الهيئة العامة، ١٩٥٧م)، ص ٢٢٥.

المصرية والشامية بصورة مستمرة، كوسيلة لحرمانها من مصدر ثرواتها وقوتها وفرض حصار اقتصادي عليها، وبهذا كانت الدولة المملوكية تتعرض لضغوط متعددة ومن جهات مختلفة.

إلا أنه رغم هذه الهجمات كان لا زال يفد على مصر من البحر الأحمر السلع الشرقية وتساعدها على التصدي للأخطار الخارجية ومع استمرار فرض الضرائب والرسوم الجمركية المرتفعة على الأجانب لم يجدوا حلا لإخضاع مصر إلا بقطع ذلك السيل من السلع الشرقية عن الوصول إليها، وذلك عن طريق نقل المتاجر الشرقية من موانئ مصر والشام إلى موانئ أوربية أخرى والوصول إلى طريق بحري جديد يصل إلى بلاد الهند دون المرور بأراضي الدولة المملوكية[٦٢٣].

وإزاء ما سبق سعت دولتان أوربيتان لتحقيق هذا الهدف المنشود، وهى جنوة التي تضايقت من زيادة نفوذ البندقية في البحر المتوسط وسيطرتها على التجارة العالمية وتطور علاقتها مع مصر، ودولة البرتغال هذه الدولة الناشئة التي كانت تسعى إلى المقامرة والنزول إلى ميدان التجارة، ولذا سوف نعرض مراحل اكتشاف الطريق الجديد الذي أطلق عليه طريق رأس الرجاء الصالح، لنعرف مدى سيطرة الفكرة الصليبية على الغرب الأوربي، وكيف سعى بطرق عديدة لتحطيم السيادة المملوكية، وأثر هذا الاكتشاف الجديد على الأجانب في مصر، وكيف واجهت الدول الأجنبية المساندة للدولة المملوكية هذا الخطر الداهم.

مراحل اكتشاف الطريق الجديد:

بدأت جمهورية جنوة الإيطالية تسعى للوصول إلى الهند منذ سقوط عكا عام ١٢٩١م، حيث أبحر اثنان من جنوة إلى الجنوب في اتجاه المحيط الأطلنطي، ووصلا إلى الساحل الغربي لأفريقيا، ولكنهما فقدا في البحر وضاع أثرهما، ولم يعلم أحد مصيرهما، وفي بداية عام ١٣٠٠م سافر بحارة جنوية آخرون لصالح ملك البرتغال،

([٦٢٣]) زين الدين على بن أحمد الشيخ، تحفة المجاهدين في أخبار البرتغاليين (تحقيق أيمن فؤاد الطيبي، طرابلس، ١٩٨٧م)، ص٧٨.

واكتشفوا جزر الكناري ثم جزر أخرى في المحيط الأطلنطي[٦٢٤]، ثم تقدم البحار كريستوفر كولمبس الإيطالي الأصل إلى المحيط الأطلسي للاكتشاف لصالح ملك أسبانيا، ولكنه وصل إلى أرض جديدة أطلق عليها أمريكا بدلا من الوصول إلى بلاد الهند [٦٢٥].

لكن الفكرة لم تمت وتزعمت البرتغال فكرة الكشف الجغرافي، وأراد ملك البرتغال أن يقوم بعمل عظيم مثلما فعل الأسبان، فأرسل أسطولا يدور حول أفريقيا لعله يكتشف طريقا للهند، فوصل الأسطول إلى كينيا واستولى على عدد من العبيد للعمل في الجزر الجديدة وأصبحت مركزا تجاريا للذهب والعبيد، واستمر البرتغاليون في التقدم نحو الجنوب [٦٢٦].

كذلك أسهم اثنان من البرتغاليين بجهودهما للبحث عن طريق إلى الهند واشترك معهما الأمير هنري الملاح ابن ملك البرتغال، الذي لعب دورا هاما في حركة الكشوف، ورغم وفاته عام ١٤٦٠م فقد تقدم البرتغاليون من بعده لاستكمال المشروع، وبذلوا كل جهدهم حتى وصلوا إلى ساحل الذهب وساحل الإكوادور عام ١٤٧١م[٦٢٧].

وفى عهد الملك البرتغالي جون الثاني واصل المكتشفون أعمالهم إلى أن تمكنوا من الوصول إلى أقصى الطرف الجنوبي لأفريقيا عام ١٤٨٦م بقيادة الملاح البرتغالي بارثليمودياز، الذي دار حول رأس العواصف، والذي سماه الملك فيما بعد برأس الرجاء الصالح ثم وصل إلى أرض جديدة على بعد مائتي ميل من هذا الرأس على الساحل الشرقي لأفريقيا[٦٢٨]، ولم يهدأ الملك البرتغالي، بل واصل ما بدأه، حيث

([٦٢٤]) هايد، المرجع السابق،ج٤،ص ٣؛

Encyclopedia of students , vol 2 , p. 70. ; Ziada , op.cit. p. 250

([٦٢٥]) عبد المنعم ماجد، التاريخ السياسي لدولة سلاطين المماليك (الأنجلو المصرية، ١٩٨٨م)، ص٣١٠.

([626])Encyclopedia of students , p. 70

([627])Ziada , op.cit. p. 250.

([٦٢٨])هايد، المرجع السابق، ج٤، ص٣؛ شاريل ديل، المرجع السابق، ص ١٤٥؛ سعيد عاشور،

أرسل اثنين من عملائه في مهمة سرية إلى نفس الطريق ونفس المكان لاكتشاف المصدر الأساسي لتجارة التوابل، والوصول إلى الأسواق الرئيسية للفلفل والبهار الهندي[٦٢٩]، وفي طريقهما التقيا ببعثة يهودية قد أرسلها الملك البرتغالي لجمع المعلومات، فاتجها إلى مضيق هرمز ثم زيلع وقد استطاعت تلك البعثات اليهودية الحصول على خرائط عربية عن المحيط الهندي والتيارات البحرية والرياح الموسمية وبيانات عن التجارة الشرقية[٦٣٠]، ومن هؤلاء العملاء شخص يدعى بيرودى كوفلهام، الذي تمكن من الوصول إلى مصر عام ١٤٨٧م، وأبحر منها إلى سواكن ثم اتجه إلى الجنوب، فوصل عدن، ثم واصل رحلته إلى الهند، وعند عودته اتجه إلى الساحل الشرقي لأفريقيا فمر بمدينة زيلع ثم مدينة مالي، وقد تمكن خلال رحلته من جمع معلومات هامة عن تجارة الكارم[٦٣١].

ونظرا للرغبة القوية لاستكمال هذا المشروع، أرسل الملك الملاح فاسكودي جاما للدوران حول رأس الرجاء الصالح، فوصل إلى الساحل الشرقي لأفريقيا عند موزمبيق عام ١٤٩٧م، حيث وجد بحارا هنديا من كمباى يدعى دافان فاتخذه مستشارا له، لأنه خبيرا بالتوابل وسماسرتها، وقام بتزويده بحمولة من التوابل نظير توصيله إلى الهند [٦٣٢]، وبعد موزمبيق أبحر إلى مالندى (كينيا)، حيث استقبله حاكمها

أوربا في العصور الوسطى (الأنجلو المصرية، ١٩٨٣م)، ج١، ص ٥٩٠؛

Cambridge medieval history (London , 1936) vol 3 , p. 524.

([٦٢٩]) حامد خطاب، قنصوى الغوري ونهاية الدولة المملوكية (دكتوراه غير منشورة، آداب عين شمس، ١٩٧٣م)، ص ١٤٩؛ Ziada , op.cit. p. 251.

([٦٣٠]) حامد خطاب،نفسه؛عبد العزيز الشناوي،أوربا في مطلع العصور الحديثة (القاهرة ١٩٦٩م)،ج١،ص ٩٨.

([٦٣١]) محمد عبد الغنى الأشقر،تجارة التوابل في مصر المملوكية (الهيئة العامة،١٩٩٩م)، ص٤٢٠–٤٢١؛

Cambridge medieval history , vol 3 , p. 524.

([٦٣٢]) زاهر رياض، استعمار أفريقيا (معهد الدراسات الأفريقية، القاهرة، ١٩٦٥م، ص٢٣؛ أحمد زكى، " صفحة من تاريخ التجارة المصرية "،(مجلة المقتطف، ١٩١٧م)، ص٢٢٧؛ محمد عبد الغني، نفسه.

استقبالا كريما، وطلب منه ملاحا يرشده إلى الهند، فأمده بملاح ماهر في أحوال البحار [٦٣٣]، وسارت سفنه في المحيط الهندي حوالي ثلاثة وعشرين يوما حتى وصل فاسكودى جاما إلى ميناء قاليقوط الهندي عام ١٤٩٨م [٦٣٤]، ولكنه لم يستطيع تحميل سفنه بالتوابل ومتاجر الشرق بسبب رفض ملك قاليقوط، فما كان من فاسكودىجاما إلا الاستيلاء على إحدى سفن الكارم وإغراقها، ثم عاد إلى لشبونة ببعض البضائع المتواضعة[٦٣٥]، ومن المرجح أن هذا التوصل كان إيذانا بثورة كبرى في طرق التجارة العالمية من ناحية، وإعلانا بضياع أهمية مصر بوصفها أهم الطرق التجارية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى من ناحية أخرى.

ومن ثم بدأت البرتغال ترسل أساطيلها لاستخلاص تجارة الشرق من أيدي المماليك وتحويلها إلى طريق رأس الرجاء الصالح، ثم إلى لشبونة عاصمة البرتغال، وخاصة بعد أن علم الملك البرتغالي عن طريق تاجر يهودي من قاليقوط ويدعى جاسبار فرق السعر بين أسعار التوابل في الهند وبين أسعارها في أسواق مصر والشام، فوجد الفرق كبيرا وأن الأسعار في الهند أقل للغاية فزاد ذلك من حماسه ورغبته في منافسة الدول الأخرى [٦٣٦]، وخاصة البندقية التي سيطرت على مسألة توريد السلع الشرقية إلى الأسواق الأوربية لفترات طويلة في العصور الوسطى.

فأرسل أسطولا تجاريا مكونا من ثلاث عشرة سفينة في مارس عام ١٥٠٠م بقيادة القائد البرتغالي كابرال، الذي استطاع أن يؤسس مكتب توكيل تجارى برتغالي في قاليقوط، غير أن التجار المسلمين القادمين من مصر نصحوا ملك قاليقوط بعدم التعامل مع الأجانب الذين وصفوهم بالدخلاء، وبعد ثلاثة شهور من وصوله، لم

([٦٣٣]) إبراهيم على طرخان، " البرتغاليون في غرب أفريقيا "، (مجلة آداب القاهرة، مجلد ٢٥، مايو ١٩٦٧م)، ج١، ص٢٧.

([634]) زاهر رياض، المرجع السابق، ص ٢٤؛ هايد، المرجع السابق، ج٤، ص٥؛ شارل ديل، المرجع السابق، ص ١٤٥؛ أحمد حسين، موسوعة تاريخ مصر في العصور الوسطى (دار الشعب، ١٩٧٢م)، ج٢، ص ٧٩٠؛ Stanly lane pool , op. cit. p. 350.

([٦٣٥]) هايد، المرجع السابق، ج٤، ص٥.

([٦٣٦]) نفسه، ص ٦ – ٧.

يستطيع إلا تحميل سفينتين فقط من ملك كشى وكنانور، اللذان أعطياه القرنفل والزنجبيل ثم عاد إلى لشبونة [٦٣٧]، وتأكيدا لسيادة البرتغال في المحيط الهندي، قام القائد البرتغالي بقصف مدينة قاليقوط، وإغراق بعض السفن التجارية المصرية في الميناء، ومن بينها سفينة تابعة للسلطان الغوري، كانت على وشك الإقلاع إلى جدة[٦٣٨]، وقبل رحيل كابرال وصل أسطول برتغالي آخر في ٥ مايو عام ١٥٠١م مكون من أربعة سفن بقيادة جوادنوفا، ولكن ملك قاليقوط رفض استقباله، أما ملكا كشى وكنانور فقد قدما له التسهيلات اللازمة، وقد أدرك ملك البرتغال أن كشى وكنانور عدوان لملك قاليقوط، فاستمر يرسل الأساطيل التجارية لتمنع قدوم الأساطيل الإسلامية[٦٣٩].

لذا أرسل حملة بقيادة فاسكودجاما لتنفيذ عدة مهام أهمها، إقامة حصون على السواحل الغربية لشبه جزيرة الهند، لتزويد السفن البحرية بالمياه العذبة، وبناء حصن في موقع مناسب عند مدخل البحر الأحمر، لمنع السفن التي تحمل التوابل من الدخول إلى البحر الأحمر في الطريق إلى مصر حتى يفقد الهنود الأمل في المتاجرة مع غير البرتغاليين، وبالفعل نجح الأسطول البرتغالي في احتلال جزيرة سومطرة، واتخذها قاعدة للهجوم على السفن الإسلامية[٦٤٠]، كما استطاع فاسكودجاما أن يبقى السفن البرتغالية في مدخل البحر الأحمر، وحاصره، وحاول عقد معاهدة سلام مع حاكم قاليقوط، ولكنه رفض، فضرب المدينة، ثم اتجه إلى كشى وكنانور وحمل سفنه بالبضائع الهندية، وأسس مكاتب تجارية هناك بعد أن عقد صفقات تجارية هامة

([٦٣٧]) نفسه، ص ٧؛ محمد الأشقر، المرجع السابق، ص ٤٢٢؛ Ziada , op.cit. p. 251

([٦٣٨]) ابن منكلى، الأحكام المملوكية والضوابط الناموسية في القتال في البحر (تحقيق محمد عبد العزيز، دكتوراه غير منشورة، آداب القاهرة، ١٩٧٤م)، ص ٨٣؛ إسماعيل سيرهنك، حقائق الأخبار عن دول البحار (بولاق، ١٣١٤هـ)؛ الشاطر بصيلى " الصراع بين الدولة العثمانية والبرتغال في المحيط الهندى"، (المجلة المصرية التاريخية، العدد ١٢، ١٩٦٥م)، ص ١٣٥.

([٦٣٩]) هايد، المرجع السابق، ج٤، ص ٨ –٩؛ Ziada , op.cit. p. 255

([٦٤٠]) ابن منكلى، المصدر السابق، ص ٨٣؛ إبراهيم على طرخان، مصر في عهد الجراكسة، ص ٢٩٢؛ الشاطر بصيلى، المرجع السابق، ص١٣٦؛ سعاد ماهر، البحرية في مصر الإسلامية وآثارها الباقية (دار الكتاب العربي، ١٩٦٧م)، ص ١٢٨.

معهما[٦٤١]، بالإضافة إلى اتباع ملك البرتغال كل الطرق والوسائل الممكنة لقطع الطريق أمام تجارة الكارم إلى مصر، وإجبار التجار البنادقة على المجيء إلى لشبونة لشراء التوابل من أسواقها[٦٤٢].

هذا وقد استولى البرتغاليون على ذهب مالي الذي ساعدها على شراء كميات كبيرة من التوابل، مما شجع البرتغاليين على بناء المزيد من السفن التجارية، بهدف منع وصول التوابل إلى مصر وبالفعل بدأ يقل وجود التوابل في مصر، والشام ففي عام ٩٠٨هـ/١٥٠٢م عادت سفن البندقية من الإسكندرية بكميات قليلة من الفلفل[٦٤٣].

وتتابعت الأساطيل البرتغالية في توافدها إلى الهند بقيادة فرنسسيكو ألميديا وألفونسو، ونجح الاثنان في إنشاء مكتب توكيل تجارى برتغالي في مدينة كشى، واضطر حاكم قاليقوط لعقد معاهدة سلام وصلح مع القائد البرتغالي، الذي اشترط عليه أن يقدم له ألف وخمسمائة طن فلفل، ويغلق أسواقه في وجه التجار المصريين القادمين من البحر الأحمر، ثم جاءت سفن تجارية من لشبونة ومعها سفن حربية مسلحة للحماية، وفي هذه المرة حمل البرتغاليون حمولة من البضائع قدرها ٢٤ ألف قنطار توابل من مدينتي كشى وكنانور، وبذلك استطاع البرتغاليون السيطرة على التجارة الشرقية، بوجود أسطول سنوي هناك، وحققوا النصر ثلاث سنوات متتالية[٦٤٤].

وفى يوليو عام ١٥٠٥م أرسل الملك البرتغالي عدة سفن تجارية، تصاحبها سفن عسكرية بقيادة فرنسسيكو ألميديا وابنه لورنزو، وعندما وصل إلى مدينة كولة على الساحل الأفريقي بنا بها حصنا وسلب عدة مدن مجاورة لها، ورأى الملك البرتغالي عمانويل أنه لا بد من وجود أسطول برتغالي عسكري في المنطقة، فأرسل ثلاث عشرة سفينة تصحبهم أربع سفن حربية في أبريل عام ١٥٠٦م [٦٤٥].

---

(٦٤١) Ziada , op.cit. p. 255.

(٦٤٢) إبراهيم على طرخان، المرجع السابق، ص ٢٩١.

(٦٤٣) سمير الخادم، المرجع السابق، ص ٤٥١ - ٤٥٢؛ محمد الأشقر، المرجع السابق،ص ٤٢٣.

(644)Ziada , op.cit. p. 257 – 258.

(645)Ziada , op.cit. p. 257 – 258.

كما أرسل حملة أخرى بقيادة البوكيرك في نفس العام نتج عنها تكدس التوابل في أسواق لشبونة، ولذا حاول تجار الكارم الحصول على التوابل من أسواق ملقا، مما دفع البرتغاليين إلى إغراق السفن الكارمية الإسلامية، والاستيلاء على جزيرة سومطرة لسد منافذ البحر الحمر، فأدى ذلك إلى تحكم البرتغاليين في الطريق البحري التجاري[٦٤٦].

هذا بالإضافة إلى استيلاء البرتغاليين على ملقا عام ٩١٧هـ/١٥١١م لمنع وصول أي مركب كارمى إليها، والتي كانت تعد أعظم القواعد التجارية في التجارة العالمية، حيث تتجمع فيها منتجات الهند والصين، ثم استولوا على هرمز رأس الخليج العربي، والذي كان يعد ميناء التجارة الشرقية البرى إلى سوريا، فأغلقوا بذلك الطريق في وجه التجار المسلمين في سوريا والعراق[٦٤٧]، وقد زاد فسادهم وإجرامهم في ثغور اليمن، ووصلوا جدة، واستولوا على المراكب الكارمية، وأخذوا تجارها أسرى[٦٤٨]، ولذا وضعوا تجار الكارم تحت ضغط شديد، وتزايد ضرر البرتغاليين في بحر الحجاز، وساروا يعبثون بمراكب الهند، ويقطعون عليهم الطريق حتى أدى ذلك إلى قلة وصول البضائع الشرقية إلى مصر[٦٤٩].

الأثر الاقتصادي على مصر نتيجة اكتشاف الطريق الجديد:

لا شك أن هذا الطريق الجديد قد أثر سلبيا على الاقتصاد المصري، وأدى إلى كساد التجارة المصرية، فقد كانت مصر الوسيط التجاري الوحيد بين الشرق والغرب، واستمدت قوتها من القيام بهذا الدور في وقت لم يكن هناك إلا طريق البحر المتوسط فقط، ولكن مع اكتشاف البرتغاليين طريق رأس الرجاء الصالح، ووصولهم إلى الهند، فقد حرم الدولة المملوكية من موردها الأساسي، مما أنزل ضربة قاسمة بالاقتصاد المصري، ويصور لنا ابن إياس ما أصاب الاقتصاد المصري آنذاك من خراب

---

(٦٤٦) محمد الأشقر، المرجع السابق، ص ٤٢٤ – ٤٢٥.

(٦٤٧) إبراهيم على طرخان، المرجع السابق، ص ٢٩٢؛ محمد الأشقر، نفسه.

(٦٤٨) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص ٨٢.

(٦٤٩) نفسه.

وتدمير نتيجة لكساد التجارة في الأسواق وخلو الموانئ المصرية مثل دمياط والإسكندرية وجدة من البضائع والتجار المسلمين والأجانب، حيث ذكر في حوادث عام ٩٢٠هـ/١٥١٤م: "وكان في تلك الأيام ديوان المفرد وديوان الدولة وديوان الخاص في غاية الانحطاط والتعطيل، فإن بندر الإسكندرية خراب، ولم تدخل إليه السفن في السنة الحالية، وبندر جدة خراب بسبب عبث الفرنج على التجار في بحر الهند، فلم تدخل المراكب بالبضائع إلى بندر جدة نحواً من ست سنين وكذلك جهة دمياط"[٦٥٠].

و أمام هذا التدهور الذي منيت به الدولة حاول سلاطين المماليك معالجته، فقد لجئوا إلى أساليب عديدة لتعويض خزانة الدولة عما فقدته، واسترداد مكانة مصر الاقتصادية أمام الشرق والغرب، ولكنها كانت أساليب حادة زادت من الخراب والتدهور، حيث قام السلاطين المماليك بمصادرة أموال الناس وأملاكهم لسد العجز المادي، وبلغت أشدها في عهد السلطان الغوري، ففي عام ٩٠٧هـ /١٥٠٠م طلب المماليك الجلبان من السلطان دفع النفقة فظل يؤخرها أربعة أشهر حتى جمع لهم الأموال من المصادرات[٦٥١]، وجاء على لسان ابن إياس في ذكر ٩١٥هـ/١٥٠٩م: " أنه قد صودر في هذه السنة جماعة كثيرة من الأعيان "[٦٥٢]، ولم يقتصر الأمر على مصادرة الأموال السائلة أو العقارات، إنما امتدت إلى أشياء أخرى مادية تفيد في الخدمات الأخرى، فعندما اشتدت حاجة السلطان للأخشاب لبناء السفن في السويس لمحاربة البرتغاليين عام ٩١٩هـ/١٥١٣م، فإنه قد أمر رجاله بقطع أشجار الناس من الأراضي والحقول والحدائق، بدون رضاهم و أرسلها إلى السويس من أجل بناء السفن[٦٥٣].

كذلك لم يكن أهل الريف بمنأى عن ظلم السلاطين وقسوتهم، رغم الأزمة

([٦٥٠]) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص ٣٥٩.
([٦٥١]) نفسه، ص١٩١.
([٦٥٢]) نفسه، ص ١٥٢.
([٦٥٣]) نفسه، ص ٣٠٧.

الاقتصادية فقد امتدت يد التعسف إليهم، ففي الوقت الذي كان فيه رجال السلطان يضيقون الخناق على التجار في القاهرة والمدن الأخرى وسلب أموالهم ومتاجرهم، كان الكشاف في الأقاليم ينفذ تعليمات السلطان بجمع الأموال من الناس في الريف، كما لجأ السلطان إلى جمع خراج الأرض من المزارعين قبل ميعاده، وقبل جمع المحصول وحصاده، وذلك ما أورده ابن إياس بقوله: "في أحداث سنة ٩١٨هـ/١٥١٢م من أن السلطان الغوري أمر كاشف الشرقية وكاشف الغربية بأن ينزلوا البلاد ويستخرجوا من الفلاحين الأموال، وذلك قبل قدوم السنة الخراجية الجديدة، فأدى ذلك إلى الضرر الشديد للفلاحين، وسار الكشاف يستخرج الأموال عن طريق تفتيش المنازل وضرب الفلاحين، ومن يهرب منهم يقبض على زوجته وأولاده، فأدى ذلك إلى رحيل كثير من المزارعين عن الأراضي وبوار الأراضي الزراعية"[٦٥٤].

بالإضافة إلى ما أصاب الصعيد الذي لم يكن أحسن حالا من الوجه البحري، إذ كان رجال الغوري يستولون على كثير من الخيول من الأهالي، فكانوا ينزلون بكل بلدة ويفرضون عليها فرسين قيمتهما مائة دينار في حالة إذا كانت البلدة صغيرة، أما البلدة الكبيرة فكان يفرض عليها أربعة خيول بفرسانهم، فأدى ذلك إلى هجرة الناس من الأراضي لعدم قدرتهم على الدفع أو إعداد الخيالة ولوازمهم، فأدى إلى تدهور المحاصيل والأراضي الزراعية[٦٥٥].

وتطالعنا المصادر المعاصرة بوجود نوع جديد من الضرائب تجمع كل شهر، ويوردها الناس إلى المحتسب الذي يوردها بدوره إلى الخزانة السلطانية، وقد بلغ من قسوة هذه الضريبة أن زادت شهريا إلى ألفى دينار، وعنها يقول ابن إياس: "إن هذه الضريبة من أكبر الفساد في حق المسلمين"[٦٥٦]، ونظرًا لأن الباعة والتجار والصناع اضطروا إلى تعويض ما حدث لهم، وذلك عن طريق رفع أثمان البضائع والسلع،

([٦٥٤]) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص٢٦٢.

([٦٥٥]) نفسه، ج٥، ص ٣١.

([٦٥٦]) نفسه، ج٤، ص ٢٥؛ ج٥، ص ٣٢.

فأشتد الغلاء وقل وجود أصناف معينة في الأسواق، مما قلل من حركة البيع والشراء وضاعف ذلك من التدهور الاقتصادي.

الأثر الاقتصادي على الأجانب في مصر:

عندما بدأ البرتغاليون يثبتون أقدامهم على شواطئ وموانئ الهند، ويهاجمون السفن المحملة بالبضائع الهندية وتحويل متاجر الشرق الأقصى إلى أسواق لشبونة، فلم يعد هناك حاجة إلى وساطة مصر والبندقية، في حين ارتفعت الأسعار في الأسواق الإيطالية حيث تراوح القنطار من الفلفل ما بين ٣: ٣.٥ دوكة في قاليقوط، وبعد وصوله إلى موانئ الإسكندرية ودمياط، بلغ سعره حوالي ثمانين دوكة، أما في أسواق لشبونة، فبلغ سعره حوالي ٢٠ أو ٤٠ دوكة فقط، وبذلك انخفضت الأسعار في لشبونة عما كانت عليه في أسواق مصر والبندقية[٦٥٧].

ودليلنا على ذلك ما جاء به السفير البندقى في البرتغال إلى حكومته، حيث ذكر أن ملك البرتغال قد فرح كثيرا عندما سمع باكتشاف الطريق الجديد، والوصول إلى موانئ الهند والصين بسهولة، ثم العودة إلى ميناء لشبونة وسفنه محملة بالبضائع الشرقية، وأضاف أيضا أن السفن البندقية لم تعد في حاجة إلى مصر وأسواقها، وما عليها إذا إلا أن تأتى إلى أسواق لشبونة وسوف تلقى هناك معاملة طيبة[٦٥٨].

ولم تلبث أسواق الإسكندرية وبيروت أن تأثرت بهذا الحدث الخطير، فقد كانت سفن البنادقة في الإسكندرية وبيروت ليس لديها المال الكافي لشراء التوابل والفلفل بالأسعار المرتفعة، ففي عام ١٥٠٢م لم تجلب سفن بيروت إلى البندقية سوى أربعة أطنان فقط من الفلفل، أما سفن الإسكندرية فلم تستطع شراء إلا القليل منه، وترتب على ذلك ارتفاع كبير في سعره، فزادت شحنة الفلفل من ٧٥دوكة إلى ١٠٠دوكة خلال بضعة شهور، مما اضطرت سفن البندقية في بعض الأحيان إلى الرحيل دون شراء حمل واحد [٦٥٩].

([٦٥٧]) شارل ديل، المرجع السابق، ص ١٤٦؛ إبراهيم على طرخان، المرجع السابق، ص ٢٩٣؛ أحمد دراج، المرجع السابق، ص ١٣٣.

([٦٥٨]) هايد، المرجع السابق، ج٤، ص ١٠ – ١١.

([٦٥٩]) نفسه، ص ١٤ ؛ شارل ديل، المرجع السابق، ص ١٥١؛ سمير الخادم، المرجع السابق، ص

وفى أثناء ذلك كانت الدولة تضغط على الأجانب الوافدين إلى الموانئ المصرية، وتتبع سياسة تعسفية شديدة معهم، وتسببت في تأخير السفن الأجنبية عن الرحيل وعن استكمال الإجراءات الجمركية، وذلك رغبة في رفع الأسعار عدة مرات، مما سبب خسارة فادحة للأجانب، فأدى ذلك إلى إحجام الأجانب عن المجيء إلى الموانئ المصرية[٦٦٠].

وهكذا ذبلت الإسكندرية ودمياط، وافتقرت أسواقها بعد انصراف الأجانب عنها تجنبا لدفع المكوس الباهظة التي يفرضها السلاطين المماليك، ولذا يذكر ابن إياس أحوال مدينة الإسكندرية في ذلك الوقت وما أصابها من تدمير وخراب بعد أن كانت مرسى كل دول الشرق والغرب، ومحط السفراء والرحالة والتجار، فقال عنها: "عندما زار الغوري مدينة الإسكندرية في سنة ٩٢٠هـ/١٥١٤م كانت غاية في الخراب، بسبب ظلم النائب وجور القباض، فإنهم صاروا يأخذون من التجار العشر عشرة أمثال، فامتنع تجار الفرنج والمغاربة من الدخول إلى الثغر، فتلاش أمر المدينة، وآل أمرها إلى الخراب، وبعض الدكاكين مفتحة والبقية لم تفتح"[٦٦١]. وكما حدث لميناء الإسكندرية حدث لبقية الثغور المصرية، فوجدنا ثغر جدة خاويا من التجار، وذلك لظلم النائب وجوره في جمع الضرائب، وكذلك الإسكندرية ودمياط، حيث امتنع الأجانب من الدخول إلى الموانئ من كثرة المظالم وقلة وجود الأصناف التي كانت تجلب من البلاد الأجنبية [٦٦٢].

وهكذا كان توغل السفن البرتغالية في البحر الأحمر ومطاردة السفن الإسلامية كالطاعون الذي قضى على دولة بأكملها، وكان وصول التوابل إلى أسواق لشبونة بأسعار منخفضة جدًا عن الأسعار التي كانت توجد في أسواق الإسكندرية ودمياط بمثابة الصدمة الكبرى والخسارة الفادحة لمصر والدول الأجنبية المتاجرة

٤٥٢.

([٦٦٠]) نعيم زكى، المرجع السابق، ص ٣٧٩.

([٦٦١]) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص ٤٢٤.

([٦٦٢]) نفسه، ج٥، ص٩٠.

معها، مثل البندقية التي حافظت على دورها كوسيط تجارى طوال العصور الوسطى، أما الدول الأجنبية الأخرى فقد قل تعاملها مع مصر، بسبب توافر السلع الشرقية في لشبونة بأسعار زهيدة، مما أدى إلى قلة وفود الأجانب إلى الموانئ المصرية، وتدهور الفندق كمؤسسة تجارية للأجانب.

وليس أدل على ذلك مما أورده المؤرخ هايد من قلة ورود السفن الأجنبية إلى الموانئ المصرية، فكانوا من قبل يصلون إلى الثغور المصرية والسورية بأعداد كبيرة تصل إلى ثلاث عشرة سفينة كل عام، أما الآن بعد توغل البرتغاليين في المحيط الهندي فلم تصل إلا ثلاث سفن مرة كل سنتين فقط، مما سبب خسارة فادحة للتجارة المصرية [٦٦٣].

وهناك سبب آخر عمل على عدم وجود السفن الأجنبية بكثرة في الثغور المصرية، وهو أن عمال السلطان والنواب في الثغور كانوا يقومون بتعطيل السفن وإجبارها على شراء كميات كبيرة من الفلفل المخلوط بالتراب والشوائب بأسعار مرتفعة، مما سبب خسارة فادحة للتجار الأجانب[٦٦٤]، وربما يعود ذلك إلى قلة وصول الفلفل من الهند نتيجة لسيطرة البرتغال على هذه السلعة وشرائها بكميات كبيرة، فاضطر التجار المصريون إلى غش الفلفل لبيع كميات قليلة بأسعار مرتفعة، تعويضا عن الخسارة التي حدثت لهم نتيجة لاكتشاف الطريق الجديد، وبذلك كان هذا الطريق الجديد يمثل كارثة حقيقية على مصر من نواحٍ متعددة وكذلك على الأجانب الذين تعرضوا للتعسف والظلم من قبل الحكام والنواب.

موقف السلطات المملوكية والأجانب من الخطر البرتغالي:

وإذا انتقلنا إلى موقف السلطات المملوكية والأجانب، وخاصة البنادقة وذلك لأن كل الأجانب قد رحلوا عن الموانئ المصرية، أما البنادقة فقد ظلوا على اتصال بالسلطات المملوكية لحماية مصالحهم التجارية، ولذا أرسلت البندقية سفارة إلى السلطان الغوري سنة ١٥٠٣م توضح له أن تجارة التوابل قد أصبحت في أيدي

([٦٦٣]) هايد، المرجع السابق، ج٤، ص ٣٨ ـ٣٩.

([٦٦٤]) نعيم زكى، المرجع السابق، ص ١٠٦.

البرتغال، ولو استمر هذا الوضع فسوف تحدث كارثة على مصر، وأضاف السفير البندقى بأن الملك البرتغالي قد دعا الدول الأجنبية والشعوب المسيحية الأخرى للمجيء إلى بلاده للحصول على التوابل بأسعار زهيدة، واقترح على السلطان حلا لهذه المشكلة، وهى أن يغلق السلطان الموانئ والأبواب المؤدية إلى وجه الهند في وجه السفن البرتغالية، ولذلك يجب أن يرسل إلى ملوك الهند يناشدهم بقطع العلاقات مع الدخلاء البرتغاليين؛ لأنهم لا يشترون شيئًا سوى التوابل في حين كان المصريون يشترون التوابل والمنتجات الأخرى، ومن ناحية أخرى يجب على السلطان أن يخفض سعر التوابل حتى يتسنى لها منافسة الحكومة البرتغالية [٦٦٥]. غير أن هذه النصائح لم تلق أذاناً صاغية عند السلطان الغوري، ولكنه أمر ببناء أربعة مراكب في ميناء بولاق ونقلها إلى السويس، لتصبح نواة للأسطول المصري الذي سيتم إعداده لمواجهة البرتغاليين[٦٦٦].

هذا وقد وصل الخبر إلى القاهرة عن إغراق مركب كبير تابع للسلطان، كان في طريقه من ساحل الملبار إلى البحر الأحمر وعليه حمولة كبيرة من القرفة والفلفل والزنجبيل والتوابل الأخرى، وكثير من الحجاج الهنود المسافرين إلى مكة، وقد عرف أن فاسكودجاما كان وراء نهب وحرق المركب قبل إغراقه، فأثار غضب السلطان وبخاصة بعد ما وصلت الأخبار من أسبانيا باضطهاد المسلمين وطردهم من بلادهم[٦٦٧].

وعلى هذا النحو فكر السلطان الغوري في أن يبعث رسالة إلى بعض الدول الأوربية للعمل على وقف الحملات البرتغالية على الهند، وهدد باتخاذ إجراءات عنيفة ضد المسيحيين في بلاده ولا سيما بالقدس، بل إنه سوف يغلق الأماكن المقدسة وحمل

([٦٦٥]) هايد، المرجع السابق، ج٤، ص ١٥ –١٦؛ إبراهيم طرخان، المرجع السابق، ص ٢٩٤؛ سمير الخادم، المرجع السابق، ص ٤٥٢؛ شارل ديل، المرجع السابق، ص ١٤٦؛ أحمد دراج، المرجع السابق، ص ١٣٣، . Ziada , op. cit. p. 266

([666]) Loc. cit.

([٦٦٧]) سمير الخادم، المرجع السابق، ص ٤٢٦.

هذه الرسالة راهب أسباني فرنسيسكاني من جبل صهيون في بيت المقدس يدعى مورو، وكان الغوري قد كلفه بالمرور على روما في طريقه للبندقية حيث التقى مع البابا في سنة ١٥٠٤م ووعده بالكتابة إلى الملك البرتغالي، الذي أكد للبابا بأن السلطان المملوكي لا يقدر على فعل شيء تجاه مسيحي الشرق في بلاده، لأنه حريص على إبقاء العلاقات التجارية مع الأجانب والحجاج اللاتين لزيارة الأماكن المقدسة لتحصيل الرسوم وبذلك فشلت السفارة[٦٦٨].

فأدى ذلك إلى أن صب السلطان الغوري غضبه على التجار البنادقة في الإسكندرية، وفرض عليهم شراء التوابل بأثمان مرتفعة، ولكن قائد السفينة رفض الشراء وخرج من البحر دون إذن السلطان ونجح في الإفلات منهم، وعلى إثر ذلك قبضت السلطات المملوكية على قنصل البنادقة وجميع التجار وأرسلتهم إلى القاهرة وصادرت متاجرهم [٦٦٩].

وإزاء ما حدث أرسلت البندقية سفارة إلى مصر برئاسة السفير فرنسيسكو تالدى عام ١٥٠٤م ومعه أخبار هامة، وهى أن البرتغاليين يواصلون حملاتهم إلى الهند دون أن تستطيع البندقية أن تفعل شيئا حيال ذلك، وأن التوابل التي يجلبها البرتغاليون أرخص بكثير من تلك المتواجدة في الإسكندرية ودمياط، مما أتاح لهم فرصة التسويق إلى إنجلترا وفرنسا وبلاد الفلاندرز وإيطاليا، وأن مجموعة من التجار البنادقة ترغب في الاستجابة إلى دعوة الملك البرتغالي والذهاب إلى لشبونة لشراء التوابل المعفاة من الرسوم، وأن البندقية لا ترغب في قطع علاقتها بمصر، وتأمل أن يتمكن السلطان من إعادة الأمور إلى نصابها، ولذلك تقترح حكومة البندقية عدة وسائل يتخذها السلطان ضد البرتغاليين منها:

أولا: أن يرسل السلطان سفنا تجارية إلى الهند لشراء كميات كبيرة من التوابل

([٦٦٨]) هايد، المرجع السابق، ج٤، ص ١٧ ـ١٨؛ أحمد دراج، المرجع السابق، ص ١٣٤ ـ١٣٥؛ Cambridge Modern history (Cambridge , 1904) , vol 1 , p. 30 ; Ziada , op.cit.p 266.

([٦٦٩]) أحمد دراج، المرجع السابق، ص ١٣٦.

وطرحها في الأسواق مع تقليل سعرها، لضمان نجاح المنافسة ضد البرتغاليين، وثانيا: يرسل قوات عسكرية إلى المحيط الهندي والبحر الأحمر للحد من التوغل البرتغالي، وثالثا: يرسل إلى ملكي كش و كنانور لإقناعهم بعدم التوغل مع العدو البرتغالي، وكذلك إلى ملكي قاليقوط وكمباى وتشجيعهما على مقاومة البرتغاليين، وأضاف أيضا أن البندقية لن تستطيع تقديم المساعدة، لأن قواتها مرابطة في البحر المتوسط خشية اندلاع حرب بينهما وبين الأتراك العثمانيين [٦٧٠]، وهنا نلاحظ أن البندقية عادت إلى استخدام لعبة الازدواج لتحقيق مصالحها وأهدافها، فمن ناحية تسعى إلى تشجيع السلطان المملوكي على مقاومة الخطر، البرتغالي وحده، ومن ناحية أخرى لا تقدم أية مساعدات أو تضحيات بل وقفت موقفا سلبيا أمام هذا الخطر وألقت بالدولة المملوكية في الخطر دون مساعدة، رغم أنها مستفيدة من التخلص من هذا العدو، وأن هذا الاكتشاف الجديد قد أثر سلبيا على تجارتها.

وإزاء هذا الوضع وجد الغوري نفسه وحيدا، وأثبت موقفه السلبى فأرسل السفارات إلى الباب وملوك أوربا فلم يجدي بشيء فاتجه إلى استخدام القوى العسكرية لمواجهة القوة البرتغالية في المحيط الهندي، ففي جمادى الأخر عام٩١١هـ/سبتمبر ١٥٠٥م عمد إلى تجميع قوة بحرية عسكرية وإرسالها إلى جدة، للتصدي للوجود البرتغالي في سواحل الهند[٦٧١]، كما خرجت حملة عسكرية أخرى نحو خمسين سفينة إلى السويس ومنها إلى جدة[٦٧٢]، وقد أنفق السلطان عليها كثيرا حيث أعطى كل مملوك عشرين دينارا، وصرف لهم رواتب أربعة أشهر مقدما، وتألفت الحملة من عناصر متعددة من الفرسان والبحارة والنجارين والبنائين لبناء الأسوار والحصون

([٦٧٠]) هايد، المرجع السابق، ج٤، ص ١٩ – ٢٠؛ نعيم زكى، المرجع السابق، ص ٣٨٥ –٣٨٦.

([٦٧١]) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص ٨٢.

([٦٧٢]) يحيى بن الحسن بن القاسم بن محمد اليمانى، غاية الأماني في أخبار القطر اليماني (تحقيق سعيد عاشور، محمد مصطفى زيادة، القاهرة، ١٩٦٨م)، ج٢، ص ٦٣١؛ عثمان عبد الحميد عشري، الأسطول والبحرية في عصر المماليك (ماجستير غير منشور، آداب القاهرة، ١٩٧٠م)، ص ٤٤.

والأبراج في جدة لحمايتها، ولمقاومة السفن البرتغالية[٦٧٣]، خرجت الحملة بقيادة الأمير حسين الكردي نائب جدة وعلى المسلاتي وتوجهت إلى السويس، وأنزلوا من هناك مراكب إلى جدة، كما جهز السلطان عدة مراكب مشحونة بالزاد والسلاح وغيرها[٦٧٤]، وعند وصوله جدة شرع في بناء الأبراج على ساحل بندر جدة ثم انتقل إلى سواكن فاستولى عليها بالأمان واحتاط على ما بها من التوابل وغيرها[٦٧٥].

وهنا يتبادر إلى أذهاننا تساؤل عن دور البندقية وموقفها إزاء ما يحدث، والإجابة هي: أنه بعد أن ردت البندقية بعجزها عن اتخاذ أي إجراء سواء لمد السلطان بالأخشاب والأسلحة، أو التوسط لدى ملك البرتغال وملك أسبانيا، خشية أن يتهمها المسيحيون الغربيون بالخيانة إن أوفد السلطان الغوري سفارة إلى البندقية في ذي القعدة ٩١٢هـ/ إبريل ١٥٠٦م برئاسة كبير تراجمته الأمير تغرى بردى، واستغرقت الرحلة ثمانية عشر شهرا زار خلالها قبرص ورودس [٦٧٦]، ثم اتجه إلى البندقية، حيث تقابل مع كبار المسئولين في البلاط، و انتهت المفاوضات بعقد اتفاقية تجارية بين الطرفين، أما من ناحية المساعدة العسكرية فقد أبدت الجمهورية استعدادها لمد العون العسكري، ولكن دون أن يتعارض ذلك مع الأهداف الصليبية[٦٧٧]، ويبدو أن عدم مصداقية البندقية في المساعدة راجع إلى رفض سفير المملوكي البحث في مسألة استبدال الفلفل بالنحاس البندقي[٦٧٨]، ولا عجب في موقف البندقية هذا فقد اعتاد على أتباع سياسة ذات الوجهين حتى لا تغضب السلاطين المماليك، ولا تغضب المسيحيين، كما كانت حريصة على عدم التورط مع الغوري في القيام علانية بأية مساعدة أو إجراء يتعارض مع الهدف الصليبي ضد البرتغال، التي تساندها البابوية

([٦٧٣]) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص ٨٤.

([٦٧٤]) نفسه، ص ٨٥.

([٦٧٥]) نفسه، ص ٩٥ – ٩٦.

([٦٧٦]) أحمد دراج، المرجع السابق، ص ١٤٠؛ إبراهيم طرخان، المرجع السابق، ص ٢٩١.

([٦٧٧]) Ziada , op. cit. p 262.

([٦٧٨]) محمد الأشقر، المرجع السابق، ص ٤٢٩.

ولكنها تحت ضغط العامل التجاري أشارت إلى بعض الاقتراحات لتحسين الوضع دون أن تظهر بمظهر الخائنة للعالم المسيحي الغربي.

في حين واصل البرتغاليون تقدمهم في المحيط الهندي، ففي سنة ٩١٢هـ/١٥٠٦م زاد ضررهم وفسادهم، حيث وجدت عشرين سفينة برتغالية في المحيط الهندي تقطع الطريق على التجار المسلمين، وتستولي على ما معهم من أموال ومتاجر[٦٧٩]، فأمر الغوري ببناء سفن جديدة في رشيد والإسكندرية، كما أرسل حملة عسكرية إلى البحر الأحمر مساندة للأمير حسين الكردي بقيادة الأمير محمد يبك وجماعة من المماليك السلطانية [٦٨٠].

وظل الأسطول المصري يتقدم في البحر الأحمر مع وصول الإمدادات العسكرية من القاهرة، حتى اشتبك مع الأسطول البرتغالي في شعبان عام ٩١٤هـ/١٥٠٨م وانتصر عليه وغنم غنائم كثيرة، وعندما وصلت أخبار النصر إلى القاهرة أمر السلطان الغوري بدق الطبول و إقامة الأفراح والزينات في شوارع القاهرة[٦٨١]، وفي نفس الوقت حاول الأسطول البرتغالي التوجه إلى مكة والمدينة، وما أن علم بوجود الأسطول المصري هناك اتجه نحو الجنوب ثم إلى ساحل الهند، وما لبث أن سار الأسطول المصري وراءه متعقبا إياه إلى أن وصل إلى ساحل الهند الغربي، فالتقى الأسطولان مرة أخرى في ميناء شول [٦٨٢]، واشتركا معا في معركة بحرية انتهت بهزيمة الأسطول البرتغالي ومقتل لورنزو بن فرنسيسكو ألميديا قائد الأسطول وتحطيم سفنه وأسر بعضها[٦٨٣].

كان هذا الحدث بداية صراع طويل بين مصر والبرتغال، فقد صممت

([٦٧٩]) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص ١٠٩.

([٦٨٠]) نفسه، ص ١٢٩ – ١٣٠.

([٦٨١]) نفسه، ص ١٤٢.

([٦٨٢]) ميناء شول (chaul) أكبر ميناء في منتصف ساحل الهند الغربى ويقع بين ساحل كتكن ما بين كجرات وملبار، انظر زين الدين، تحفة المجاهدين، ص ٨٣.

([٦٨٣]) نفسه، ص ٨٣ –٨٥ ؛ هايد، المرجع السابق، ج٤، ص ٣١؛ الشاطر بصيلى، المرجع السابق، ص ١٣١.

البرتغال على مواصلة الجهود المضنية للقضاء على الأسطول المصري الذي اتجه إلى ديو للتمويل والإصلاح، حتى ينقضي فصل الشتاء، وفي ذلك الوقت قدم حاكم الملبار مساعدته وزود الأسطول المصري بأربعين سفينة صغيرة[٦٨٤].

ورغم هذا فقد استعاد البرتغاليون قوتهم بسرعة واستعدوا لمحاربة الأسطول المصري في معركة ضارية، حددت مصير كلا الطرفين، ففي الوقت الذي بدأ فيه الأسطول المصري يستعيد قوته في ديو لاستكمال مهمته، كان الأسطول البرتغالي يترقب ما يحدث وجهز البرتغاليون أكثر من سفينة مسلحة، وفاجئوا الأسطول المصري في ديو [٦٨٥]، وعلى أثر ذلك خرج الأسطول المصري يعاونه الأسطول الهندي والملبارى، وعند المواجهة ركز القائد البرتغالي على تحطيم الأسطول المصري انتقاما لمقتل ولده، ووقعت معركة هائلة في صفر عام ٩١٥هـ/فبراير ١٥٠٩م انتصر فيها الأسطول البرتغالي وأسر بعض مراكب الأسطول المصري وحطم الأخرى، وحاقت الهزيمة بالمماليك فاضطر القائد المملوكي حسين الكردي إلى الرجوع إلى جدة[٦٨٦].

ونعود مرة أخرى إلى البندقية فقد أصبحت غير قادرة على التصدي لأي عدو، إذ أنهكتها الحروب مع الدولة العثمانية، ونضبت مواردها، ورأت أنها سوف تقع فريسة في أيدى أحد من المتصارعين عليها، إما البرتغاليين أو العثمانيين، وأما مصر، فقد دب الضعف في أوصالها، ونضبت تجارتها وخارت قواها، وإذا وقعت في قبضة أحدهما قضى على البندقية تماما. ولذا لجأت إلى حل سريع بعد أن فقدت الأمل في تحسين العلاقة المتوترة بين سلطان مصر وبينها، ووجدوا أفضل وسيلة هي تحالفها مع الشاه إسماعيل الصفوي، وكان الهدف من هذا التحالف هو محاولة إحياء طريق التجارة الشرقية عبر الخليج العربي، الذي كان قد توقف بسبب الحروب، ولكن هذا

([٦٨٤]) زين الدين على، المصدر السابق، ص ٨٥؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص ١٥٠.

([٦٨٥]) زين الدين على، نفسه.

([٦٨٦]) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص ١٥٦؛ إبراهيم على طرخان، مصر في عصر الجراكسة، ص ٢٩٦؛ إسماعيل سيرهنك، حقائق البحار، ج٢،ص ٣٦؛ Ziada , op. cit , p. 265.

التحالف لم يتحقق حيث قبض نائب ألبيرة على جماعة من البنادقة قادمين من عند الصفوي، ومعهم خطاب منه إلى الدول الأوربية للاستعانة بهم في القيام بهجوم بحري على سواحل مصر في حين يقوم الصفوي بمهاجمتها برا[٦٨٧]، فقبض السلطان الغوري على قناصل البندقية بالإسكندرية ودمشق وطرابلس، وعلى التجار وصادر أموالهم وهددهم بالشنق[٦٨٨]، فأدى ذلك إلى توتر العلاقات بين الطرفين أسوأ مما سبق.

وهنا استغلت الدول الأوربية المنافسة للبندقية هذا الموقف فسارعت فلورنسا بإرسال سفارة إلى الغوري بعد هزيمته في ديو ورغم قلة الرعايا الفلورنسيين في الموانئ المصرية، إلا أنها عقدت معه اتفاقيه تجارية منحتهم امتيازات تجارية جديدة وقنصلية دائمة في الإسكندرية، وأمر موظفي الدولة بمراعاة الفلورنسيين، وقد أقدمت فلورانسا على ذلك رغبة منها في عودة نشاطها التجاري كما سبق، ومحاولة لاحتلال المكانة التجارية التي تمتعت بها البندقية من قبل[٦٨٩]، كما انتهزت فرنسا فرصة توتر العلاقات بين مصر والبندقية، فأرسلت سفارة إلى الغوري في مارس ١٥١٢م، هدفها عقد اتفاقية تجارية وإطلاق حرية التجارة في موانئ مصر والشام، والسماح للحجاج الفرنسيين بزيارة الأماكن المقدسة، كما وعدت السفارة بتقديم العون والمساعدة للسلطان، غير أن هذه السفارة لم تنجح في مهمتها إلا في إطلاق سراح الأسرى الفرنسيين فقط[٦٩٠].

ولكن لم تقبل البندقية هذا الوضع، فما لبثت أن أرسلت سفارة في نفس العام إلى القاهرة، وطلب السفير البندق من السلطان الغوري إعادة العلاقات الطيبة بين الجانبين، وأقنعوه بعدم وجود علاقة بين حكومته وبين الشاه إسماعيل الصفوي

---

(٦٨٧) ابن إياس، نفسه، ص ١٩١.

(٦٨٨) نفسه، ص ٢٠٥.

(٦٨٩) نعيم زكى، المرجع السابق، ص٩٢.

(٦٩٠) أحمد دراج، المرجع السابق، ص ١٤٩؛ إبراهيم طرخان، المرجع السابق، ص ٢٩٨؛ هايد، المرجع السابق، ج٤،ص ٣٥.

وأضاف أن دولته ليست مستعدة لقطع علاقتها بمصر، واستطاع هذا السفير عقد اتفاقية تجارية حققت للبنادقة امتيازات متعددة، كما أطلق سراح التجار البنادقة، وواصلت السفن البندقية المجيء إلى الموانئ المصرية، وبذلك تمكنت البندقية من استعادة نشاطها التجاري مع مصر وتحقيق أهدافها الاقتصادية [٦٩١].

أما الغوري فقد اتجه إلى الدولة العثمانية لشراء الأخشاب لبناء السفن والمعدات الحربية، إلا أن فرسان الأسبتارية هاجموا السفن العثمانية في عام ٩١٦هـ/ ١٥١٠م واستولوا على بعضها وأحرقوا البعض الآخر، ولم يصل إلى الإسكندرية سوى ست سفن خاوية[٦٩٢]، وانتقاما لما حدث ألقى الغوري القبض على عشرين راهبًا من رهبان كنيسة القيامة في بيت المقدس، وأمرهم بالكتابة إلى ملوك أوربا لاسترداد ما استولى عليه القراصنة من السفن والسلاح، وإلا فانه سيهدم كنيسة القيامة وسيشنق الرهبان، كما قبض على خمسين تاجرا أجنبيا[٦٩٣].

وهكذا تعاظمت الأخطار حوله واشتدت المخاطر من كل جانب، فضلا عما تعانيه الدولة من قلة الأموال وعجزه عن استكمال مشروع التسليح البحري وبناء الأسطول وعمارة الأسوار والأبراج و إقامة التحصينات اللازمة فإنه اضطر إلى طلب النجدة من السلطان العثماني بايزيد الثاني، الذي أرسل له الأخشاب والبارود والبنادق والحبال والسهام والمجاديف اللازمة لبناء الأسطول بدون مقابل [٦٩٤]، وحقيقة كانت العلاقات بين الدولتين آخذة في التحسن ظاهريا رغم ما تخفيه الدولة العثمانية من رغبة في التوسع على حساب الأراضي المملوكية، ولكن هناك عوامل متعددة دفعت الدولة العثمانية لتقديم المساعدة بدون مقابل، منها أن الدولة العثمانية قد اعتبرت أن الحرب ضد البرتغاليين جزء من الحروب الصليبية بين المسلمين والمسيحيين، فهي من ناحية كانت تسعى لحماية مصر الإسلامية وتمنع وقوعها في

([٦٩١]) أحمد دراج، نفسه، ص ١٥٠؛ نعيم زكى، المرجع السابق، ص٣٩٥؛ هايد، نفسه، ص ٣٦.
([٦٩٢]) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص ١٩١ – ١٩٢.
([٦٩٣]) نفسه، ص ١٩٥.
([٦٩٤]) نفسه، ص ٢٠١، ٢٩٦.

أيدي المسيحيين، ومن ناحية أخرى ترغب في الانتقام لنفسها من الأوربيين الذين حاربوها في أوربا أثناء حركة توسعها وهناك عامل أخر جعل العثمانيين يرحبون بالتعاون مع مصر، وهو طمع سلطانها في الدولة المملوكية التي كانت تحتل موقعا إستراتيجيا هاما، خاصة بعد هجرة الأجانب من القسطنطينية إلى الموانئ المصرية والشامية، فكانت ترنو إلى احتلال مصر الضعيفة، و التي لم تعد تقوى على الصمود والتصدي للخطر البرتغالي وحدها.

وفى أثناء ذلك الوقت قام الأسطول البرتغالي بمهاجمة عدن في سنة ٩١٩هـ/ ١٥١٣م، بقصد السيطرة على المدخل الجنوبي للبحر الأحمر[٦٩٥]، كما هاجم مدينة كمران ومدينة سواكن أيضا[٦٩٦]، ولذلك زاد عزم الغوري على التوسع في استخدام الأسلحة النارية في جبهة البحر الأحمر والمحيط الهندي وكذلك زيادة مسابك المدافع ثم إنشاء وحدات عسكرية مسلحة بالبنادق [٦٩٧]، وتابع الغوري تجربة المدافع وضرب أربعة وسبعين مدفعا في ربيع الآخر سنة ٩٢٠هـ/ يونيه ١٥١٤م، ومكاحل نحاس وحديد [٦٩٨]، وقد اعتمد المماليك على أنفسهم في صنع هذه الأسلحة، بالإضافة إلى ما أرسله السلطان العثماني من البنادق والبارود والمدافع [٦٩٩]، كما اهتم السلطان بالبارود، فعندما أخبره شخص بوجود مادة نترات البوتاسيوم بالقرب من الكرك والتي تدخل في صناعة البارود كافأه بعشرة آلاف دينار [٧٠٠]، ولكن نتيجة لقلة خبرة المماليك بالبارود وعدم وجود مدربين على كيفية استخدامه، فقد احترق سقف الزردخانة، بسبب اشتعال البارود فيها[٧٠١].

([٦٩٥]) زين الدين على، المصدر السابق، ص٨٦ ؛؛ Ziada , op. cit , p. 265.

([٦٩٦]) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص ٣٠٧.

([٦٩٧]) نفسه، ص ١٩٢.

([٦٩٨]) نفسه، ص ٣٧٤.

([٦٩٩]) نفسه، ص ١٩٦، ٢٠١.

([٧٠٠]) نفسه، ص ٢٠٤.

([٧٠١]) نفسه، ص ٣٨٤.

كما أنشأ الغوري وحدات عسكرية مسلحة بالبنادق، تعتمد على البنادق النارية، وسميت بالطبقة الخامسة، وأرسلها إلى السويس في رجب سنة ٩١٩هـ/ أكتوبر ١٥١٣م، حيث اعتمد القتال في المحيط الهندي والبحر الأحمر على الأسلحة النارية [٧٠٢]، ولكن الغوري لم يتحرك إلا بعد خمس سنوات من هزيمة ديو، حيث عين الأمير حسين الكردي نائبا على جدة، وعين الأمير خشقدم شاد الشون مراقباً في جدة لمراقبة الأسطول البرتغالي، كما جهز له حملة عسكرية، وبعد وصولها جدة أرسل الأمير حسين الكردي إلى السلطان في جمادى الأولى سنة ٩٢٠هـ/ ١٥١٤م، يخبره بزيادة فساد البرتغاليين في سواحل الهند، وتوغلهم في المحيط الهندي فاستولوا على كمران فأدى ذلك إلى ضياع جهات عديدة من الهند واستحث السلطان على إرسال حملة عسكريو على الفور[٧٠٣].

وأنزل الغوري وحدات أسطوله الجديد المكون من اثنين وعشرين مركبا كبيرا، وضم إليه عساكر من الترك والمغاربة، وعهد بالقيادة إلى الأمير حسين الكردي، وما أن علم البرتغاليون بقدوم الأسطول المصري ومدى قوته واستعداده حتى سارعوا بالانسحاب من ميناء البحر الأحمر، فتتبعهم الأمير حسين الكردي إلى شواطئ الهند، غير أنه لم يستطيع إنزال الهزيمة، بهم فأرسل إلى السلطان يطلب منه نجدة عسكرية فورا، فبعث إليه بوحدات عسكرية جديدة بقيادة سليمان العثماني[٧٠٤]، غير أن هذه القوات لم يكن لها حظ كبير في إحراز النجاح، ولم تستطع تحقيق انتصار حاسم على البرتغاليين بسبب ما كان للبرتغاليين من قواعد قوية على الشاطئ الهندي، والتحصينات اللازمة عليه، فانسحب الأسطول المصري إلى جدة، ونجح فقط في إبعاد الخطر البرتغالي مؤقتا عن البحر الأحمر[٧٠٥].

ثم اتجه إلى كمران وزبيد فاستولى عليها في جمادى الآخر سنة ٩٢٢هـ/

([٧٠٢]) نفسه، ص ٣٢٣، ٣٣١، ٣٣٦.

([٧٠٣]) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص ٣٨٢، ٣٨٣.

([٧٠٤]) زين الدين على، المصدر السابق، ص ٨٦.

([٧٠٥]) الشاطر بصيلى، المرجع السابق، ص ١٣٣.

١٥١٦م[٧٠٦]، ثم عاد مرة أخرى إلى عدن، حيث اشتبك مع الأسطول البرتغالي، فانتصر عليه و استولى على عدن، إلا أن الأمير حسين الكردي قد استخدم السيف في المسلمين هناك، وقام بعمليات السلب والنهب، فكان ذلك سببا في وقوع الخلاف بينه وبين زميله سليمان العثماني، ولذا عاد الأسطول إلى جدة [٧٠٧] بعد أن استولى في طريقه على اليمن من بني طاهر، وعين بها نائبا[٧٠٨].

وفى ذلك الوقت دخلت الدولة المملوكية مرحلتها الأخيرة، حيث ساءت العلاقة بين السلطان الغوري والسلطان العثماني، فاضطر الغوري إلى الخروج على رأس جيشه لمواجهة الخطر العثماني في مرج دابق شمال الشام، والتي أودت بحياته [٧٠٩]، وجاءت نهاية الغوري مع نهاية قائده في البحر الأحمر، حيث قبض شريف مكة على الأمير حسين الكردي وأغرقه في البحر[٧١٠].

وترتب على تحطيم الأسطول المصري، أن قام البرتغاليون بتهديد طريق البحر الأحمر التجاري بصورة ساخرة، فحاولوا السطو على بندر جدة، إذ تحركت قوى برتغالية إلى ساحل عدن في ثلاثين مركبا، فاستقبلهم الظافرى حاكم عدن، وزودهم بما يحتاجونه ثم توجهوا إلى بندر جدة، إلا أن البحرية المصرية المرابطة هناك بقيادة سليمان العثماني قد تصدت لهم فدمرت بعض مراكبهم، وأسرت البعض الآخر، ولكن ما حدث بعد ذلك أسرع بتدمير بقايا الأسطول المصري، عند إطلاق البارود أحرق جانبا من مركب القائد المصري، بسبب غش البارود[٧١١]، الأمر الذي أدى إلى عودته إلى القاهرة في شعبان سنة ٩٢٣هـ/ أغسطس ١٥١٧م بعد سقوط الدولة المملوكية في أيدي العثمانيين بحوالي ثمانية أشهر، ومعه بعض الأسرى البرتغاليين[٧١٢].

([٧٠٦]) يحيى بن الحسن، المصدر السابق، ج٢، ص ٦٤٣ – ٦٤٤.

([٧٠٧]) زين الدين على، المصدر السابق، ص ٨٦ –٨٧؛ ابن إياس، بدائع الزهور، ج٥، ص ٨٣؛ عبد الرحمن زكى، الجيش المصري في العصر الإسلامي (القاهرة، ١٩٧٠م)، ج٢، ص ٢١١.

([٧٠٨]) زين الدين على، نفسه، ص ٨٧، إبراهيم طرخان، المرجع السابق، ص ٣٠٠؛ نعيم زكى، المرجع السابق، ص ١٠٩.

([٧٠٩]) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٥، ص ٦٩ –٧٠؛ أحمد بن زنبل الرمال، آخر واقعة السلطان الغورى مع سليم العثمانى (تحقيق عبد المنعم عامر، القاهرة، ١٩٦٢م)، ص ٢٧.

([٧١٠]) ابن إياس، نفسه، ص ١٩٠.

([٧١١]) يحيى بن الحسن، المصدر السابق، ص ٦٥٨.

([٧١٢]) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٥، ص ٨٣ –١١٥؛ إبراهيم على طرخان، المرجع السابق، ص

وبذلك ترك الميدان الشرقي خاليا للبرتغاليين، الذين فرضوا السيطرة كاملة على مراكز تجارية هامة في الهند والشرق الأقصى، وذلك باحتلالهم مناطق إنتاج سلع الشرق، وأصبح لهم احتكار تجارتها في العالم كله، بعد أن انتزعوها من قبضة المماليك والبنادقة وبات كل من يرغب في شراء السلع الشرقية عليه أن يلجأ إلى لشبونة، و اضمحلت مكانة مصر الاقتصادية، وهكذا استطاع البرتغاليون تنفيذ الجزء الأكبر من سياستهم تجاه مصر بالقضاء على تجارتها، وإضعاف ومقوماتها، حيث ينازعوها في لاسترداد الأراضي المقدسة بالشام، وهى التي كانوا يتخذونها ستارا يخفون وراءها هدفهم الأساسي، وهو السيطرة على مناطق إنتاج التوابل في الشرق الأقصى والهند، وإحلالها مكان البنادقة في أوربا، مما در عليها الأموال الطائلة، فكان الدافع المادي هو الهدف الأساسي من الكشف الجغرافي الجديد.

وخلاصة هذا الفصل أن جشع المماليك، واتباع سياسة الاحتكار، ورفع الأسعار، أدى إلى حقد الدول الأوربية على الدولة المملوكية، وحاولت كثيرا، وبكل الطرق تحطيم مصر وتدميرها اقتصاديا، وإضعاف قوتها العسكرية والاقتصادية، للحصول على متاجر الشرق بدون المرور على الأراضي المصرية، تجنبا لدفع الضرائب والمكوس الباهظة.

وهكذا ولعدة قرون شهدت الدولة المملوكية نشاطا كبيرا قامت به الجاليات الأجنبية الأوربية، وظلت مصر مركزا أساسيا للتجارة بين الشرق والغرب، تلك التجارة التي درت عليها أرباحا طائلة، وكانت المصدر الأساسي لتدعيم اقتصادها، وعاملا أساسيا في مساندتها في سياستها الخارجية بفضل ما أعدته من جيش قوى مكنها من دفع الخطر على الوطن العربي. إلا أنه وقعت تطورات وأحداث خطيرة، أدت إلى وضع حد للنشاط الاقتصادي وللازدهار في الدولة، وعادت في النهاية بنتائج وبيلة على مصر، أهمها انتهاء الدور الهام الذي قامت به الجاليات الأوربية في الثغور المصرية في العصر الوسيط.

٣٠٢.

الخاتمة

تمخضت هذه الدراسة عن استعراض لأوضاع الجاليات الأجنبية فى مصر فى عصر دولة سلاطين المماليك، ومن خلال المعلومات الموجودة فى المصادر والمراجع، استطاع الباحث أن يرسم صورة توضيحية لطبيعة الوجود الأجنبي في مصر خلال ذلك العصر.

وقد كشفت الدراسة عن نتائج هامة، فمن خلال دراسة الأوضاع الداخلية فى مصر فى العصر المملوكي تعرفنا على أنظمة وقواعد وضعتها الدولة لتحقيق الازدهار الداخلي، وتحسين الأوضاع، مما كان له الأثر القوى فى جذب الأجانب للإقامة فى مصر طوال العصر المملوكي، حيث تمتعت المدن المصرية – وأهمها مدينة القاهرة والمدن الساحلية – بمميزات عديدة، وإمكانيات وتسهيلات، ميزتها عن بقية مدن البحر المتوسط، فقد تميزت الثغور المصرية بوجود الفنادق اللازمة لإقامة الأجانب، مع توفير الراحة لهم، بالإضافة إلى وجود الكنائس والأديرة العتيقة، كما تمتعت المدن المصرية من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب بانتشار الأسواق والحوانيت والفنادق.

ومن خلال دراسة الأوضاع الخارجية، أوضحت الأحداث والوقائع أن قدرة مصر منذ العصور القديمة على السيطرة على الطرق التجارية فى الشرق بالإضافة إلى موقعها المتميز بين ثلاث قارات جعلها قادرة على القيام بدور الوسيط التجاري بين الشرق والغرب، كما حرص سلاطين المماليك على حماية هذا الطريق برا وبحرا، في الوقت الذي اندثرت فيه طرق أخرى فلم يستطع الأجانب السفر برا أو بحرا بدون وساطة المماليك.

ونظرا للعلاقات المتطورة والمتنوعة بين مصر والدول الأجنبية، حدثت بينهم بعض المعارك والحروب، التي نتج عنها وفود أعداد أخرى من الأسرى الأجانب، أقاموا وعاشوا فى مصر، كما أثبتت الدراسة أن الرقيق كان يمثل عنصرا هاما فى الدولة المملوكية بالنسبة للحكام، أو بالنسبة للشعب المصري، فقد جرت العادة أن يعتمد على العبيد بنوعيه فى شئون الحياة الخاصة والعامة وهذه كانت سمة من سمات

مجتمعات العصور الوسطى.

وقد توصلنا إلى نتيجة أخرى، وهى أن كل جالية من الجاليات الأجنبية قد أقامت فى مصر لأسباب ولظروف معينة خاصة بها، فوجدنا أن طائفة التجار قد دفعتهم المصالح الاقتصادية والربح المادي إلى القدوم إلى مصر، أما الأسرى فقد دخلوا البلاد عن طريق الحرب، و أما الرقيق فقد تعددت مصادرهم التي تمثلت في " أسرى الحروب، أو عن طريق الشراء، أو عن طريق الهدايا والهبات، ثم الجواسيس الذين كانوا عيونا على مصر لصالح دولهم، ومنهم التجار والقناصل، أو الجواسيس المدربون أما السفراء الأجانب فقد جاءوا إلى مصر فى مهمة محددة، ولذا كانت إقامتهم فى الديار المصرية محدودة للغاية.

وهناك طائفة أخرى جاءت إلى مصر لطلب الأمان والاستقرار والإسلام، نظرا لأنها كانت مركزاً، للخلافة الإسلامية وحصنا للحضارة العربية، فسمحت للجاليات الأجنبية بالهجرة إليها، وخاصة الجالية المغولية التي دفعتها ظروفها السياسية إلى ترك بلادهم بحثا عن الأمان والاستقرار، بالإضافة إلى رغبتهم فى اعتناق الإسلام، والإقامة فى ظل دولة إسلامية كبرى، كما ساهمت الكوارث الطبيعية والأوبئة والطواعين فى بلادهم إلى هجرة الكثيرين منهم إلى الديار المصرية، فكان الدافع الاجتماعي واضحا جدا لدى هذه الجالية.

ومن ناحية أخرى فإننا قد وجدنا أن التسهيلات والخدمات التي كانت تقدمها الدولة المملوكية للجاليات الأجنبية وخاصة الجالية الأوربية، لم تكن دائمة، بمعنى أنه عندما تتوتر العلاقات بين الدولة المملوكية والدول الأوربية (خاصة عندما يشن القراصنة الأوربيون الغارات على السفن والسواحل المصرية) تعلن الدولة مصادرتها لأموال وممتلكات الأجانب المقيمين فى الدولة أو يتعرضون للحبس والضرب والإهانة تعويضا للأذى الذي ألحقه القراصنة بالمسلمين وأحيانا تصدر القرارات بتحديد المدة التى يقيم فيها الأجنبي فى البلاد وكانت تتروح ما بين أربعة أشهر إلى ستة أشهر وبعد انتهاء هذه المحنة تعود العلاقات الطيبة مرة أخرى ويتحسن وضع الأجانب فى البلاد وربما يعود ذلك التذبذب فى المعاملات إلى حرص كلا

الطرفين على الحفاظ على المصالح الاقتصادية وتحقيق أعلى ربح مادي من هذه العلاقة .

وقد اتبعت السلطات الحاكمة تطبيق مبدأ الشريعة الإسلامية مع الأسرى الأجانب، حيث اعتمدت على خمسة مبادئ أساسية عند التعامل معهم، مثل (الفداء، الاسترقاق، الإسلام أو الجزية، القتل، العفو) وعند بيع الأسرى عبيدا فى أسواق الرقيق سمحت بألا يفرق بين الأم وأولادها، كما أوضحنا مدى الدور الهام الذي لعبه الأسرى والرقيق فى المجتمع المصري، وكيف وصل بعضهم إلى مناصب هامة، فعاشوا في هدوء واستقرار، وكان هذا مثالا للتحضر ومدى الرقى الإنساني الذي تمتعت به الدولة المملوكية، وعلى العكس من ذلك وجدنا أن الدولة قد وضعت جهازا قويا لكشف الجواسيس الأجانب، وعمل ذلك الجهاز بكفاءة ونشاط فى وقت الازدهار السياسي للدولة، ولكن فى وقت الضعف والانحلال تدهورت كفاءته، وَقَلَّتْ قدرته، فأدى ذلك إلى انتشار الجواسيس الأجانب فى مصر والشام على حد سواء .

وقد كشفت الدراسة عن طبيعة الحياة الاجتماعية للجاليات الأجنبية، حيث أقامت كل طائفة أو جالية أجنبية فى أماكن معينة خاصة بهم، حيث أقام الأجانب والأوروبيون فى فنادق فى الثغور المصرية، كما كان لكل جالية فندق، ولا يسمح لجالية أخرى بالإقامة فيه، وتمتع ذلك الفندق بخدمات عديدة، منها الراحة والأمان، ووجد به حديقة متسعة، بها أنواع مختلفة من الزهور والنباتات الأجنبية، كما سمحت السلطات بوجود مخبز وكنيسة وحمام داخل الفندق، وبالتالي شعر الأجنبي الوافد بأنه يقيم فى بلاده، دون الإحساس بالغربة، ومن ناحية أخرى فإن السلطات الحاكمة لم تسمح لهم بالتجول فى الديار المصرية أو الخروج ليلا من الفندق، وذلك خوفا منهم للوصول إلى البحر الأحمر، أو الاتصال بملك الحبشة المسيحي لعقد تحالف عسكري أو اقتصادي بين الطرفين ضد الدولة المملوكية، وهذا الأمر يبدو طبيعيا فى ظل أعمال القرصنة الأوربية، حيث كانت الدولة فى شك دائم من هؤلاء الأجانب الأوربيين.

أما الجالية المغولية فقد أقامت فى حي الحسينية، والذي أخذ يتسع ويزداد فى

العمران والإنشاء، كما ازدهر البناء فى أرض اللوق، أما الأسرى فقد عاشوا فى سجون ومعتقلات، وشملت تلك السجون جنسيات عديدة من الأسرى، ولكنهم قد تمتعوا بقدر من الحرية، فمثلا كانت الجالية الأرمينية تعيش فى سجن خزانة البنود، ولكنه في الحقيقة لم يكن سجنا بالمعنى المعروف، حيث سمح لهم بالإقامة فيه، والتزاوج والبيع والشراء، وصنع الخمور وبيعها، أما الجالية الرومية فقد أقاموا فى حارة الروم، واندمجوا في المجتمع المصري منذ فترات طويلة، أما الجواري والعبيد أيضا فقد عاشوا فى قصور السلاطين والأمراء والأعيان، وفى منازل عامة الشعب.

كما أثبتت الدراسة أن هؤلاء الأجانب كان لهم دور فى الدولة، حيث كان لبعض الشخصيات الأجنبية الأوربية ذوى النفوذ والسلطة دورٌ سياسيٌ فى حل المشاكل بين دولهم والدولة المملوكية، مثل : التاجر بيلوتي الكريتي، وسكران الجنوي، وجاك كير الفرنسي، أما عن علاقتهم بالمصريين، فقد حدث بين الطرفين مشاحنات ومناوشات، كلما كان هناك فرصة للاحتكاك، أما المغول فقد انعزلوا عن المجتمع المصري، وتولوا مناصب عليا فى الدولة، وكونوا طبقة الحكام والأمراء والأعيان، أما الأسرى والعبيد قد لعبوا أدوارا سياسية هامة، واستغلتهم الدولة فى الأعمال الإنشائية والعمرانية، ووصل بعضهم إلى مستوى سياسي وعسكري قوى، بالإضافة إلى اهتمام الحكام والناس بالرقيق ذكورا وإناثا من الناحية الإنسانية، حيث خصصوا لهم موارد رزق ثابتة، وعلى الجانب الآخر نجد أن بعض الجنسيات الأجنبية قد ساهمت فى تدهور الأخلاقيات العامة، وانتشرت الخمور، والحانات، والشذوذ الجنسي، ودور البغايا، وعادات وتقاليد جديدة على المجتمع المصري.

كما أبرزت الدراسة أن التدهور الداخلي والخارجي قد ساهم فى قلة أعداد السفن الأجنبية القادمة إلى الموانئ المصرية، وبالتالي قلة أعداد الأجانب الوافدين إلى مصر، حتى سقطت الدولة، وانهارت، وأصبحت مصر ولاية عثمانية، ومن ناحية أخرى فقد استغلت البرتغال تدهور الأوضاع الداخلية السياسية والاقتصادية، فتقدمت بكل قوتها فى مياه البحر الأحمر والمحيط الهندي، وسيطرت على طريق رأس الرجاء الصالح، وسارعت بتوزيع السلع الشرقية فى لشبونة بأسعار زهيدة أقل مما كانت تباع

به فى الأسواق المصرية، بالإضافة إلى فرض ضرائب باهظة على التجار الأجانب، وسوء معاملة السلطات الحاكمة للأجانب فى الموانئ المصرية، فأدى ذلك إلى انهيار الدولة المملوكية اقتصادية كما انهارت سياسيا.

على أنه لم تكن الحروب ولا دخول البرتغاليين إلى الهند وحدهما هما اللذان أضاعا الطرق التجارية التقليدية، وخاصة طريق البحر الأحمر عبر مصر والشام، ولكن الضعف الذي سرى فى دولة سلاطين المماليك كان المعول الذي هدم الدولة وأضاع الطرق التجارية، ويرجع هذا الضعف إلى أسباب عميقة، يأتي على رأسها : فساد النظام الإقطاعي الذي قام على أساسه الحكم المملوكي، وعجز هذا الحكم عن الوفاء بالمطالب الأساسية لبقائه، فعندما عجزت الأرض التي أهملوها عن الوفاء بمطالبهم الأساسية حرصت الدولة على البحث عن موارد مالية جديدة، تمثلت في رفع الضرائب وكلما زاد احتياج سلاطين المماليك زاد تعلقهم بالتجارة واحتكارهم لكل مصادرها، مما أدى إلى تذمر الأجانب وعزوفهم عن الحضور لمصر.

وثانيها العوامل الداخلية : التى تكمن فى طبيعة تكوين الدولة نفسها والصراع بين أمرائها على السلطة والنفوذ، فقد اختل نظامهم الاجتماعي والحربي لإهمالهم الأسس التي تربوا عليها ولم يعودوا يصلون لمصر صغارا يتعلمون الطاعة ويتحلون بالدين والأخلاق ويتدربون على الحرب وفنونها، بل وصلوا شبانا تتنازعهم الأهواء والمطامع، ويعمدون إلى حوادث النهب والسلب، ولذا تأرجح الحكم بين عدد كبير من السلاطين يحكم كل منهم شهورا أو أياما، مما أعطى انطباعا واضحا بمدى الفوضى وعدم الاستقرار التي سادت البلاد فى الدور الأخير من حياة تلك الدولة.

وثالثا العوامل الخارجية : التي تضافرت جميعها لهدفين أساسيين، أولهما القضاء على مصدر ثراء الدولة المدعم لقوتها العسكرية، وهو التجارة فى المياه الشرقية والتحكم فيها بين الشرق والغرب، وثانيهما القضاء على الدولة ذاتها، ووقع الهدف الأول على عاتق الكتيلان والبرتغال فى حين وقع الثاني على عاتق العثمانيين.

أولا : المصادر العربية المخطوطة:.

١) ابن بهادر (كمال الدين محمد بن محمد المؤمنى ٨٧٧هـ – ١٤٧٢م). - فتوح النصر في تاريخ ملوك مصر (مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤٩٧٧ تاريخ) .

٢) ابن حبيب (الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر بن حبيب). - درة الأسلاك في دولة الأتراك (مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٦١٧٠ تاريخ).

٣) ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم بن واصل). - تاريخ الواصلين في أخبار الخلفاء والملوك والسلاطين (مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥٣١٩ تاريخ).

٤) البلوى المغربي (خالد بن عيسى بن أحمد بن إبراهيم بن خالد البلوى). - تاج المفرق في تحلية علماء المشرق – المعروف برحلة البلوى المغربي (مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٠٥٣ جغرافيا).

ثانيا : المصادر العربية المطبوعة:.

١) ابن أبى الفضائل (مفضل بن أبى الفضائل، ت ٧٦٠هـ / ١٣٥٨م)

- تاريخ سلاطين المماليك أو النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، نشره وترجمه للفرنسية وعلق عليه

E. Blauchet, patralogia Orientalis , 3 vols, Paris 1919 , 1952, 1929

٢) ابن إياس (محمد بن أحمد بن إياس المصري، ت ٩٣٠هـ / ١٥٢٣م) - بدائع الزهور في وقائع الدهور، ٥ أجزاء، تحقيق محمد مصطفى زيادة، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٧٢ – ١٩٨٣م.

- نزهة الأمم في العجائب والحكم، تحقيق محمد زينهم،محمد عزب، القاهرة، ب ت.

٣) ابن أيبك الدوادارى (أبو بكر عبد الله بن أيبك، ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٢م) . - كنز الدرر وجامع الغرر، الجزء الثامن الدرة الذكية في أخبار الدولة التركية، تحقيق أولرخ هارمان، القاهرة، ١٩٧١م- الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر وهو

الجزء التاسع من كنز الدرر وجامع الغرر، تحقيق هانس روبرت ويمر، القاهرة، ١٩٦٠م .

٤) ابن بطوطة (عبد الله بن محمد بن إبراهيم ت ٧٧٩ هـ /١٣٧٧م).-رحلة ابن بطوطة المسماة بـ (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)، طبعة الأزهر الشريف، ١٩٢٨م.

٥) ابن تغرى بردى (جمال الدين أبو المحاسن يوسف، ت ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩م). - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة طبعة دار الكتب المصرية حتى ج١٢، القاهرة، ١٩٦٠م، من ج١٣ –١٦، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٢م– منتخبات من حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور، حررها وليام بير، كاليفورنيا،١٩٣٠م. - المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، تحقيق نبيل عبد العزيز، القاهرة، ١٩٨٥م. _ مورد اللطافة في من ولى السلطنة والخلافة، تحقيق نبيل عبد العزيز، القاهرة، ١٩٩٧م .

٥) ابن جبير (أبى الحسن محمد بن أحمد بن جبير). - رحلة ابن جبير، تحقيق حسين نصار، مكتبة مصر، القاهرة، ١٩٥٥م .

٦) ابن الحاج (أبو عبد الله بن محمد بن محمد، ت ٧٣٧هـ، ١٣٣٧م). - كتاب المدخل إلى الشرع الشريف، القاهرة، ١٣٢٠هـ.

٧) ابن حبيب (الحسن بن عمر بن حبيب، ت ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م). - تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، ج١،ج٢،ج٣، تحقيق محمد محمد أمين، مراجعة سعيد عاشور،القاهرة، ١٩٧٦ ١٩٨٢،١٩٨٦م.

٨) ابن حجر (الحافظ بن حجر العسقلاني، ت ٨٥٢هـ / ١٤٤٨م).– إنباء الغمر بأنباء العمر، ٩ أجزاء، دار الكتب العلمية،بيروت،١٩٨٦م. - الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق الشيخ عبد الوارث محمد على، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م.

٩) ابن حوقل (ت ٥٨٠هـ / ١١٨٤ م). - صورة الأرض، ليدن، ١٩٣٨م.

١٠)ابن خلدون (عبد الرحمن بن عمر، ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥م). - تاريخ العلامة ابن

خلدون المعروف بـ (العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر)، المجلد الخامس،بيروت، ١٩٦٨م.
١١) ابن دقماق (صارم الدين إبراهيم بن محمد بن أيدمر، ت ٨٠٩هـ / ١٤٠٦م). - الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين، تحقيق سعيد عاشور، أحمد دراج، الرياض، ١٩٨٢م.
١٢) ابن زنبل (أحمد بن زنبل الرمال، ت ٩٦٠هـ / ١٥٥٣م). - آخر واقعة السلطان الغوري مع سليم العثماني، تحقيق عبد المنعم عامر، القاهرة، ١٩٦٢م.
١٣) ابن سعيد المغربي (على بن سعيد المغربي، ت ٦٧٣هـ / ١٢٧٤م). - المغرب في حلى المغرب،ق٢ الخاص بالقاهرة والمعروف بالنجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة، تحقيق حسين نصار،القاهرة، ١٩٧٠م.
١٤) ابن شاهين (غرس الدين بن خليل بن شاهين الظاهري ، ت ٨٧٢هـ / ١٤٦٨م).– زبده كشف المماليك وبيان الطرق والمسالك، صححه بولس راويس، باريس ١٨٩٤م.
١٥) ابن شداد (عز الدين محمد بن على بن إبراهيم). - تاريخ الملك الظاهر، تحقيق أحمد حطيط، فيسباون، ١٩٨٣م.
١٦) ابن ظهيرة (غير معروف اسمه بالتحديد). - الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة، تحقيق مصطفى السقا، كامل المهندس، دار الكتب المصرية، ١٩٦٩م.
١٧) ابن عبد الظاهر (محيي الدين بن عبد الظاهر، ت ٦٩٢هـ/ ١٢٩٢م).– الروض الزاهر في سيره الملك الظاهر، تحقيق عبد العزيز خويطر، الرياض، ١٩٧٦م. - تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور،تحقيق مراد كامل، القاهرة، ١٩٦١م.
١٨) ابن العماد الحنبلي (أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد ، ت ١٠٨٩هـ / ١٦٧٩م). - شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ٨ أجزاء، القاهرة ١٣٥١هـ.
١٩) ابن الفرات (ناصر الدين محمد عبد الرحيم، ت ٨٠٧هـ/ ١٤٠٤م). - تاريخ ابن الفرات المعروف بـ "تاريخ الدول والملوك"،ج٧،ج٩ تحقيق قسطنطين رزيق،

بيروت، ١٩٣٦م ١٩٤٢م،ح٨، تحقيق قسطنطين رزيق ونجلاء عز الدين، بيروت، ١٩٣٩م.
٢٠) ابن الفوطى (أبى الفضائل عبد الرازق البغدادي، ت ٧٢٣هـ/ ١٣٢٣م). الحوادث الجامعة في التجارب النافعة في المائة السابعة،بغداد ١٣٥١هـ.
٢١) ابن كثير (عماد الدين أبو الفدا إسماعيل الدمشقي، ت ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م). - البداية والنهاية،بيروت،١٩٨٢م.
٢٢) ابن كنان (محمد بن عيسى، ت ١١٥٣هـ/ ١٧٤٠م).
- حدائق الياسمين في ذكر قوانين الخلفاء والسلاطين،تحقيق عباس صباغ،بيروت،١٩٩١م.
٢٣) ابن مماتي (الأسعد مماتي بن الوزير الأيوبي، ت ٦٠٦ هـ / ١٢٠٩م). - قوانين الدواوين، تحقيق عزيز سوريال عطية، القاهرة، ١٩٤٣م.
٢٤) ابن منظور (جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري، ت ٧١١هـ/ ١٣١١م). - لسان العرب، دار المعارف، القاهرة،ب. ت.
٢٥) ابن منكلى (محمد بن منكلى ٧٧٨هـ/ ١٣٧٦م). - الأحكام المملوكية والضوابط الناموسية في القتال في البحر، رسالة دكتوراه غير منشورة بآداب القاهرة، تحقيق عبد العزيز محمود عبد الدايم، القاهرة، ١٩٧٤م.
٢٦) ابن ميسر (محمد بن على بن يوسف، ت ٦٧٧هـ/ ١٢٧٨م). - المنتقى من أخبار مصر، تحقيق أيمن فؤاد السيد، القاهرة، ١٩٨١م.
٢٧) ابن واصل (القاضي جمال الدين الحموي، ت ٦٩٧ هـ/ ١٢٩٧م). - مفرج الكروب في أخبار بنى أيوب،ج١،ج٢، تحقيق جمال الدين الشيال القاهرة ١٩٥٣م، ١٩٥٧م.
٢٨) ابن الوردي (زين الدين عمر، ت ٧٥٠هـ/ ١٣٥٠م). - تاريخ ابن الوردي، ٢ جزء، القاهرة، ١٩٣٩م.
٢٩) أبو شامة (شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل، ت ٦٦٥هـ/ ١٢٦٨م). - الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق محمد مصطفى

حلمي، محمد مصطفى زيادة، القاهرة، ١٩٦٢م.
٣٠) أبو صالح الأرمني. - تاريخ الكنائس والأديرة في مصر، باريس، ١٨٠٩م.
٣١) أبو الفدا (الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل، ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م).– المختصر في أخبار البشر، ٤ أجزاء، القاهرة، ١٣٢٥هـ. - تقويم البلدان، تحقيق رينود، ماك كوكين، باريس، ١٨٤٠م.
٣٢) الإدريسي (أبى عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله، ت ٦٥٠ هـ/ ١٢٥٥م). - نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، القاهرة،ب.ت.
٣٣) البغدادي (أحمد بن عبد الله بن عبد اللطيف، ت ١١٠٢هـ/ ١٦٩٠م).– الإفادة والاعتبار ع الأمور والمشاهدة والحوادث بأرض مصر، تحقيق أحمد غسان، دار بن زيدون، بيروت، ١٩٨٤م.
٣٤) بنيامين التطيلى (زار مصر من عام ٥٦١هـ إلى ٥٦٩ هـ). - رحلة بنيامين التطيلى، ترجمة عزرا حداد، بغداد، ١٩٤٥م .
٣٥) بيبرس المنصوري الدوادار ت ٧٢٥هـ/ ١٣٢٤م. - زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، ج٩، تحقيق زبيدة عطا، الرياض ١٩٨٩م. - التحفة المملوكية في الدولة التركية، تحقيق عبد الحميد صالح حمدان، القاهرة، ١٩٨٧م. - مختار الأخبار، تحقيق عبد الحميد صالح حمدان، القاهرة، ١٩٩٣م.
٣٦) الحريري (أحمد بن على بن أحمد). - الإعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاعين على بلاد المسلمين، تحقيق مهدي رزق، الإسكندرية، ١٩٨٤م.
٣٧) الحسن بن عبد الله بن محمد بن عمر (ت في القرن ٨هـ / ١٤م). - أثار الأول في ترتيب الدول،بولاق، ١٢٩٥هـ.
٣٨) الحميري (محمد بن عبد المنعم الحميري).
- كتاب الروض المعطار في خير الأقطار، تحقيق إحسان عباس،بيروت، ١٩٨٠م.
٣٩) الذهبي (الحافظ شمس الدين أبو عبد الله ت ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م).
- العبر في خبر من غبر، تحقيق أبو هاجر محمد، السعيد بن بسيوني، بيروت، ب ت
- دول الإسلام، تحقيق حسن إسماعيل مروة، محمود الأرناءوط، بيروت،١٩٩٩م.

٤٠) السبكي (تاج الدين عبد الوهاب السبكي) ت ٧٧١هـ/ ١٣٦٩م.
- معيد النعم ومبيد النقم، تحقيق محمد على النجار، أبو زيد شلبي، محمد أبو العيون، القاهرة، ١٩٤٨م.
٤١) السخاوى (أبو الحسن نور الدين على بن أحمد بن عمر).
- تحفة الأحباب وبغية الطلاب في الخطط والمزارات والتراجم والبقاع المباركة، تحقيق محمود ربيع، حسن قاسم، القاهرة، ١٩٣٧م.
٤٢) السخاوى (شمس الدين محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن السخاوى).
- الضوء اللامع لاهل القرن التاسع،بيروت، ب ت.
٤٣) السيوطى (الحافظ جلال الدين بن عبد الرحمن ت ٩١١هـ/ ١٥٠٥م).
- حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق محمد أبو الفضل، ٢ جزء، القاهرة، ١٩٦٨م.
٤٤) شافع بن على (ابن عباس بن إسماعيل بن عساكر ت ٧٣٠هـ/ ١٣٢٩م).
- حسن المناقب المسرية المنتزعة من السيدة الظاهرية، تحقيق عبد العزيز خويطر، الرياض، ١٩٧٦م.
- الفضل المأثور في سيرة الملك المنصور، تحقيق عمر عبد السلام تدمرى، بيروت، ١٩٩٨م.
٤٥) الشجاعى (شمس الدين الشجاعى).
- تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون وأولاده، تحقيق برباره شيفر، قيسباون، ١٩٧٨م.
٤٦) الشهابى (الامير حيدر احمد الشهابى).
- الغرر الحسان في تواريخ الزمان، القاهرة، ١٩٠٠م.
٤٧) الشوكانى (محمد بن على ت ١٢٥٠هـ/ ١٨٣٤م).
- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع (تحقيق خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨م)
٤٨) الشيخ زين الدين (زين الدين على بن أحمد الشيخ).

- تحفة المجاهدين في أخبار البرتغاليين،تحقيق أيمن فؤاد الطيبى، منشورات كلية الدعوة الإسلامية،طرابلس،١٩٨٧م
٤٩)الاصطخرى (إبراهيم بن محمد الفارسى ت في النصف الأول من القرن ٤ هـ/١٠ م).
– المسالك والممالك، ليدن، ١٩٢٧م .
٥٠)
٥١)الصفدى (صلاح الدين خليل بن أيبك ت ٧٦٤هـ/ ١٣٦٣م).
- الوافي بالوفيات، اعتناء جاكلين سوبلة، على عمارة، قيسباون، ١٩٨٠م.
٥٢)الصيرفى (على بن داود بن إبراهيم ت ٩٠٠هـ/ ١٤٩٥م).
- نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، الأجزاء ١-٣، تحقيق حسن حبشى، القاهرة (١٩٧٠، ١٩٧١، ١٩٧٣م)
- إنباء الهصر بأبناء العصر، تحقيق حسن حبشي، دار الفكر العربي، ١٩٧٠م.
٥٣)عبد الله الشرقاوي - تحفة الناظرين فيمن ولى مصر من الملوك والسلاطين، تحقيق رحاب عبد الحميد، القاهرة، ١٩٩٦م.
٥٤)العمري (شهاب الدين أحمد بن فضل الله ت ٧٤٩هـ/ ١٣٤٩م).
- التعريف بالمصطلح الشريف ، القاهرة، ١٣١٢هـ.
- مسالك الأبصار في المماليك والأمصار، ج٢، تحقيق درولوفسكى، بيروت ١٩٨٦م.
٥٥)العيني (بدر الدين محمود العيني ت ٨٥٥هـ/ ١٤٥١).
– عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان،٤ أجزاء، تحقيق محمد محمد أمين، الهيئة العامة، ١٩٨٧- ١٩٨٨- ١٩٨٩- ١٩٩٢م.
٥٦)الفراهيدى (عبد الرحمن بن عبد أحمد الفراهيدى).
- كتاب العين، تحقيق مهدي المخزومي، مكتبة دار الهلال، القاهرة، ب . ت
٥٧) الفيروز آبادى (مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادى الشيرازى).
- القاموس المحيط، القاهرة، ١٣٤٤هـ
٥٨)القرمانى (أحمد بن يوسف القرمانى ت ١١٠٩هـ/ ١٦١٠م).

- أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ، تحقيق أحمد حطيط، فهمي سعيد، بيروت،١٩٩٢م.
٥٩)القزوينى (زكريا بن محمد بن محمود).
- آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت، ب ت.
٦٠)القلقشندى (شهاب الدين أحمد بن على ت ٨٢١هـ/ ١٤١٨م).
- صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ١٤ جزء، القاهرة، ١٩١٣-١٩١٨م.
٦١) القاموس المحيط (تقديم محمد عبد الرحمن المرعشلى، بيروت، ١٩٩٧م
٦٢)ماركو بولو. - رحلات ماركوبولو، ٤أجزاء، ترجمها للإنجليزية وليم مارسون، ترجمها للعربية عبد العزيز جاويد، القاهرة، ١٩٩٦م.
٦٣)مؤلف مجهول. - نوادر المخطوطات، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة، ١٩٧٢م .
٦٤)مؤلف مجهول. - تاريخ سلاطين المماليك، تحقيق زترستين، ليدن، ١٩١٩م.
٦٥) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية،ط٣، القاهرة، ١٩٨١م.
٦٦)المعجم الوجيز (مجمع اللغة العربية، القاهرة، ١٩٩٠م).
٦٧)المقريزى (تقى الدين أحمد بن على المقريزى، ت ٨٤٥هـ/ ١٤٤٢م).
- اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تحقيق محمد حلمى محمد، القاهرة، ١٩٧١م.
- السلوك لمعرفة دول الملوك،ج١،ج٢ تحقيق محمد مصطفى زيادة،ج٣،ج٤، تحقيق سعيد عاشور، دار الكتب المصرية، ١٩٧٠م، ١٩٧٢م، ١٩٧٣م.
- الخطط المقريزية المعروفة بالمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ٤ أجزاء، نشر كلية الآداب، القاهرة، ١٩٩٦م.
٦٨)ناصر خسرو، زار مصر بين سنتي ٤٣٩هـ/١٤٤١هـ.
– رحلة سفر نامة، تعريب يحيى الخشاب، القاهرة، ١٩٤٥م.
٦٩)النويرى (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب ت ٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م).
- نهاية الإرب في فنون الأدب،ج٨، دار الكتب المصرية،١٩٣١، ج٢٩ تحقيق محمد

عبد الهادى شعيرة، محمد مصطفى زيادة، الهيئة العامة،١٩٩٠م، ج٣١ تحقيق عبد العزيز الأهوانى، السيد الباز العرينى، الهيئة العامة،١٩٩٢م، ج٢٨ تحقيق محمد محمد أمين، الهيئة العامة، ١٩٩٣م.

٧٠) النويرى (محمد قاسم بن محمد السكندرى ت ٧٧٥هـ/ ١٣٧٣م) .

- كتاب الإلمام بالأعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية في وقفة الإسكندرية،١٥ جزء تحقيق عزيز سوريال عطية، ايتن كومب، الهند،١٩٦٩-١٩٧٣م.

٧١) اليافعي (محمد بن عبد الله بن أسعد على اليافعي ت ٧٦٨ هـ/ ١٣٦٧م).

- مرآة الجنان وعبرة اليقظان، حيدر آباد، ١٣٣٨هـ.

٧٢) ياقوت الحموي (شهاب الدين أبو عبد الله الحموي ت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م).

- معجم البلدان، تحقيق فريد عبد العزيز الجندي، بيروت، ١٩٩٠م.

٧٣) اليماني (يحيى بن الحسن بن القاسم بن محمد بن على، ت ١١٠هـ/ ١٦٨٩م).

- غاية الأماني في أخبار القطر اليماني، تحقيق سعيد عاشور، القاهرة، ١٩٦٨م

يوحنا فورزبورغ، وصف الأراضى المقدسة فى فلسطين، ترجمة سعيد عبدالله البيشاوى، دار الشروق، بيروت، ١٩٩٧م

٧٤) اليوسفى (موسى بن محمد بن يحيى اليوسفى ت ٧٥٩هـ/ ١٣٥٨م).

- نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر، تحقيق أحمد حطيط،بيروت، ١٩٨٦م.

٧٥) اليونينى (قطب الدين أبو الفتح بن محمد بن أحمد ت ٧٢٦هـ/ ١٣٢٥م).

- ذيل مرآة الزمان، ٤ أجزاء،تحقيق لى كيو، حيدر آباد، ١٩٤٥، ١٩٥٢م، ١٩٦٠، ١٩٦١م.

ثالثا : المراجع العربية

١) إبراهيم حسن سعيد. - البحرية فى عصر سلاطين المماليك، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٦م.

٢) إبراهيم على طرخان. - مصر فى عصر دولة الجراكسة، دار النهضة المصرية، ١٩٦٢م. - الإسلام والممالك الإسلامية، القاهرة، ١٩٦٠م. - إمبراطورية غانة، القاهرة، ١٩٦٢م.

٣) أحمد حسين - موسوعة تاريخ مصر، دار الشعب، ١٩٧٢م.
٤) أحمد دراج - تاريخ المماليك والفرنج في القرن ٩ هـ / ١٥ م، دار الفكر العربي، ١٩٩٠.
٥) أحمد بك شفيق - الرق في الإسلام، ترجمة أحمد زكى، طبعة بولاق، ١٨٩٢م.
٦) أحمد عبد الرازق - الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، دار الفكر العربي، ١٩٩٠م.
- الجيش المصري في العصر المملوكي، القاهرة، ١٩٩٩م.
٧) أحمد فؤاد السيد- تاريخ الأيوبيين فى مصر الإسلامية، دار النهضة المصرية، ١٩٩٦.
٨) أحمد مختار العبادى - قيام دولة المماليك الأولى، دار المعارف، الإسكندرية، ١٩٨٢م.
٩) آدم متز - الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجري، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة، القاهرة، ١٩٧٤م.
١٠) إسماعيل سرهنك- حقائق الأخبار عن دول البحار، ٣ أجزاء، طبعة بولاق، القاهرة، ١٣١٤هـ.
١١) آشتور - التاريخ الاقتصادي للشرق الأوسط في العصور الوسطى، ترجمة عبد الهادي عيلة، دمشق،١٩٨٥م.
١٢) السيد الباز العرينى - مصر في العصر الأيوبي، القاهرة، ١٩٦٠م.
- الإقطاع الحربي بمصر، القاهرة، ١٩٥٦م.
- المماليك، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٩م.
١٣) السيد عبد العزيز سالم، أحمد مختار العبادى.
- تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامى ، دار المعارف، ١٩٨٩م.
١٤) السيد عبد العزيز سالم، أحمد مختار العبادى وآخرون.
- تاريخ البحرية المصرية، الإسكندرية، ١٩٧٣م.
١٥) أنطوان خانكى - مختصر تاريخ الأرمن، القدس، ١٩٦٨م.
١٦) أنور زقلمة - المماليك في مصر، القاهرة، ١٩٩٥م.

١٧)أيمن فؤاد السيد - التطور العمراني لمدينة القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٧م.
١٨) بتشر . - تاريخ الأمة، القاهرة،١٩٦٢م.
١٩)جاستون فيت - القاهرة مدينة الفن والتجارة، ترجمة مصطفى العبادى مؤسسة أخبار اليوم،١٩٩٠م.
٢٠)جمال الدين الشيال- تاريخ مصر الإسلامية، دار المعارف، القاهرة،١٩٦٧م.
٢١)جورج كيرك- موجز تاريخ الشرق الأوسط، ترجمة عمر الإسكندري، سليم حسن، القاهرة،ب. ت
٢٢)جوزيف نسيم - دراسات في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، الإسكندرية، ١٩٨٣م.
- العدوان الصليبي على مصر، الإسكندرية ١٩٦٩م.
٢٣)حسن إبراهيم حسن- تاريخ الدولة الفاطمية، دار النهضة المصرية ١٩٥٨م.
٢٤)حسن الباشا- الألقاب الإسلامية، القاهرة، ١٩٨٩م.
٢٥)حياة ناصر الحجى-العلاقات بين سلطنة المماليك والممالك الأسبانية النصرانية، الكويت، ١٩٨٠م.
٢٦)راشد البراوى- حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين، دار النهضة المصرية، ١٩٩٦م.
٢٧)زاهر رياض- استعمار أفريقية، معهد الدراسات الأفريقية، القاهرة، ١٩٦٥م.
٢٨)سعاد ماهر
- البحرية في مصر الإسلامية وآثارها الباقية، دار الكتاب العربي، ١٩٦٧م.
- القاهرة القديمة وأحياؤها، القاهرة، ١٩٦٢م.
٢٩)سعيد عبد الفتاح عاشور:.
- المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، دار النهضة المصرية،١٩٦٢م .
- العصر المماليكى في مصر والشام، دار النهضة المصرية، ١٩٧٦م.
- قبرص والحرب الصليبية، دار النهضة المصرية، ١٩٥٧م .
- الحركة الصليبية،ج٢،الأنجلو المصرية، ١٩٦٣م.

- أوربا في العصور الوسطى، ج٢،الأنجلو المصرية،١٩٨٣م.
٣٠) سمير على الخادم- الشرق الإسلامي والغرب المسيحي عبر العلاقات بين المدن الإيطالية وشرقي البحر المتوسط، بيروت، ١٩٨٩م.
٣١) سهام أبو زيد - تاريخ الأرمن في مصر، القاهرة،١٩٩١م.
٣٢) شارل ديل- جمهورية البندقية، جمهورية أرستقراطية، ترجمة أحمد عزت عبد الكريم، توفيق اسكندر، دار المعارف ١٩٤٨م.
٣٣) عبد الرحمن زكى
– القاهرة تاريخها وآثارها، القاهرة، ١٩٦٦م.
– الجيش المصري فى العصر الإسلامى، القاهرة، ١٩٧٠م.
٣٤) عبد العزيز الشناوى - أوربا فى مطلع العصور الحديثة، الأنجلو المصرية، ١٩٨٥م.
٣٥) عبد المنعم ماجد
- التاريخ السياسى لدولة سلاطين المماليك، الأنجلو، ١٩٨٨م.
- نظم دولة المماليك ورسومهم، الأنجلو المصرية، ١٩٦٤م.
- العلاقات بين الشرق والغرب، بيروت، ١٩٦٦م.
- تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، الأنجلو المصرية، ١٩٧٢م.
٣٦) عزيز سوريال عطية
- الحروب الصليبية، ترجمة فليب صابر سيف، القاهرة، ١٩٩٠م.
- العلاقات بين الشرق والغرب، القاهرة، ١٩٧٢م.
٣٧) عطية أحمد القوصى- تجارة مصر في البحر الأحمر، دار النهضة، ١٩٧٦م.
٣٨) عفاف سيد صبرة - العلاقات بين الشرق والغرب – علاقة البندقية بمصر والشام (١١٠٠- ١٤٠٠م)، دار النهضة المصرية، ١٩٨٣م.
٣٩) على إبراهيم حسن - تاريخ المماليك البحرية وبخاصة فى عصر الناصر محمد، دار النهضة المصرية، ١٩٤٤م.
٤٠) على باشا مبارك - الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة، الهيئة العامة، ١٩٨٠م.

٤١)عمر كمال توفيق- مجتمع الإسكندرية عبر العصور، الإسكندرية، ١٩٧٥م.
٤٢)ف – هايد - تاريخ التجارة في الشرق الأدنى الإسلامي،٤ أجزاء، ترجمة أحمد رضا، عز الدين فودة، الهيئة العامة، ١٩٩١م.
٤٣)فايد حماد عاشور - العلاقة بين البندقية والشرق الأدنى الإسلامي في العصر الأيوبي، دار المعارف، ١٩٨٠م.
٤٤)فؤاد حسن حافظ - تاريخ الشعب الأرمنى، القاهرة، ١٩٨٦م .
٤٥)قاسم عبدة قاسم - عصر سلاطين المماليك (التاريخ السياسي والاجتماعي) دار عين للنشر، القاهرة،١٩٩٨م.
٤٦)ماير (ل.أ) - الملابس المملوكية، ترجمة صالح الشيشى، الهيئة العامة ١٩٧٢م.
٤٧)محمد عبد العزيز مرزوق - الناصر محمد بن قلاوون،سلسلة أعلام العرب العدد ٢٨، القاهرة، ١٩٦٤م.
٤٨)محمد عبد الغنى الأشقر- تجارة التوابل في مصر في العصر المملوكي، سلسلة تاريخ المصريين، الهيئة العامة، ١٩٩٩م.
٤٩)محمد عبد الله عنان- مصر الإسلامية، القاهرة، ١٩٦٩م.
٥٠)محمد محمود النشار- علاقة مملكتي قشتالة وأراجون بسلطنة المماليك، دار عين للنشر، القاهرة، ١٩٩٧م.
٥١)محمد جمال الدين سرور- دولة بني قلاوون في مصر، دار الفكر، ١٩٦٠م .
٥٢)محمد حمزة إسماعيل- الأشرف قنصوة الغوري، القاهرة، ١٩٩٣م.
٥٣)محمد قنديل البقلى- الطرب في العصر المملوكي، الهيئة العامة،١٩٨٤م.
٥٤)محمود رزق سليم - الناصر محمد بن قلاوون، سلسلة أعلام العرب، العدد ٥٢، الهيئة العامة، ١٩٨٩م.
٥٥)مروان المدور - الأرمن عبر التاريخ، بيروت، ١٩٨٢م.
٥٦)مصطفى حسن الكناني- العلاقات بين جنوة والشرق الأدنى الإسلامى الإسكندرية، ١٩٨١م.

obeikandl.com

٥٧)مصطفى سعد- الإسلام والنوبة في العصور الوسطى، القاهرة، ١٩٦٠م.
٥٨)نعيم زكى - طرق التجارة ومحطاتها بين الشرق والغرب، القاهرة، ١٩٧٣م.
٥٩)نقولا زيادة - رواد الشرق العربى في العصور الوسطى، القاهرة،١٩٤٣م.
٦٠)هاو سونيا - في طلب التوابل، ترجمة محمد رفعت،سلسلة الألف كتاب، الهيئة العامة، ١٩٥٧م.
٦١)هربرت فيشر- أوربا في العصور الوسطى ترجمة السيد الباز، محمد مصطفى زيادة، القاهرة ١٩٦٢م.
٦٢)هنرى بيرين - تاريخ أوربا في العصور الوسطى، ترجمة عطية القوصى، سلسلة الألف كتاب الثاني، العدد ٢٠٤، الهيئة العامة، ١٩٩٥م.

رابعا : الدوريات والمجلات:

١) إبراهيم على طرخان، البرتغاليون فى غرب أفريقيا، مجلة الآداب – القاهرة، مايو، ١٩٦٧م.
٢) أحمد دراج، الوثائق العربية المحفوظة فى دور الأرشيف الأوربية، أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة،ج١، ١٩٧٠م.
٣) أحمد زكي، صفحة من تاريخ التجارة المصرية، مجلة المقتطف، ١٩١٧م.
٤) أحمد الطاهر مكي، معاهدة تجارية من القرن ١٥م، بين سلطان مصر وملك أراجون، المجلة، سبتمبر، العدد ٤٥، ١٩٦٠م.
٥) جاستون فيت، المواصلات في مصر في العصور الوسطى، ترجمة محمد وهبي، مجلة المقتطف، ١٩٣٧م.
٦) حسنين ربيع، حجة وقف وتمليك، المجلة التاريخية المصرية،م١٩٦٤،١٢م.
٧) رشيدة بسرور، العلاقات المملوكية بالجمهوريات الإيطالية،مجلة كراسات تونسية، العدد ١٥٥، ١٩٩١م.
٨) سعيد عاشور "مركز مصر في التجارة العالمية في أواخر العصور الوسطى "، المجلة التاريخية، العدد ٢١/ ١٩٦٢م.
٩) صبحي لبيب - الفندق ظاهرة سياسية واقتصادية وقانونية، ندوة مصر وعالم

البحر المتوسط، دار الفكر، القاهرة، ١٩٨٥م.
- سياسة مصر التجارية في العصر الأيوبي والمملوكي، المجلة التاريخية المصرية، م ٢٩، ١٩٨٢م.
١٠) عبد العزيز محمود عبد الدايم، الصراع بين القوى المسيحية ودولة المماليك الجراكسة في مياه البحر المتوسط، ندوة مصر وعالم البحر المتوسط، دار الفكر، القاهرة، ١٩٨٥م.
١١) عبد اللطيف إبراهيم، وثيقة مسرور بن عبد الله الشبلى، مجلة الآداب، القاهرة، م١٩، ج١، مايو ١٩٥٧م.
١٢) على السيد على، الجاسوسية فى عصر المماليك، مجلة فكر للدراسات،١٩٨٦م.
١٣) الشاطر بصيلى،الصراع بين الدولة العثمانية والبرتغال في المحيط الهندي، المجلة التاريخية، م١٢، ١٩٦٥م.
١٤) محمد محمد أمين، معاهدة تجارية بين البندقية والمؤيد شيخ في القرن ١٥م، ندوة مصر وعالم البحر المتوسط، دار الفكر، القاهرة، ١٩٨٥م.
١٥) محمد مصطفى زيادة، المحاولات الحربية للإستيلاء على رودس، ترجمة جمال الدين الشيال، مجلة الجيش، ١٩٤٦م.

خامسا : الرسائل العلمية:.

١) حسين النحال، الحروب الصليبية المتأخرة على مصر وتونس فى أواخر العصور الوسطى، دكتوراه غير منشورة، بآداب عين شمس،١٩٩١م.
٢) رشيد باقة، العلاقات التجارية بين فلورنسا وسلطنة المماليك في القرن ١٥م، ماجيستير غير منشورة – آداب القاهرة، ١٩٨٩م.
٣) سامي سعد سلطان، أسس العلاقات الاقتصادية بين الشرق الأدنى والمدن الإيطالية، ماجستير غير منشور –آداب القاهرة، ١٩٥٨م.
٤) عادل زيتون، النشاط التجاري للمدن الإيطالية في الحوض الشرقى للبحر المتوسط، دكتوراه غير منشورة، آداب القاهرة، ١٩٧٨م.
٥) عبد العظيم حامد خطاب، قنصوة الغوري ونهاية الدولة المملوكية، دكتوراه غير

منشورة – آداب عين شمس، ١٩٧٣م.
٦) عثمان عبد الحميد محمد العشري، الأسطول والبحرية فى عصر سلاطين المماليك، ماجستير غير منشور، آداب القاهرة، ١٩٧٠م
٧) فايد حماد عاشور، التنظيمات العسكرية المغولية والمملوكية، دكتوراه غير منشورة، بآداب عين شمس، ١٩٧٢م.
٨) لبيبة إبراهيم مصطفى، الرقيق و تجارته في مصر والشام في عصر سلاطين المماليك، ماجستير غير منشور، بآداب القاهرة، ١٩٩٣م.
٩) محمد أمين صالح، التنظيمات الحكومية لتجارة مصر في عصر المماليك الجراكسة دكتوراه غير منشورة، بآداب عين شمس، ١٩٦٩م.

سادسا : المصادر والمراجع الأجنبية :

1) A.A. suryal,
- The latter crusades in the middle ages, London, 1938 .
- Egypt and Aragon, lepizig ,1938.
2) Adler, Jewish travelers, London, 1930.
3) Amitai , R. Mongols and mamulks, Cambridge, 1995.
4) Cambridge of Islam, vol 2 , London , 1970.
Cambridge of medieval history, London, 1936- 1939 .
Cambridge of modern history, vol 1 , London, 1940.
5) Clive day, A history of commerce (London, 1940).
6) D. Ayalon , studies on the mamluk of Egypt, London, 1977 .
7) Doop. (P.h)
- Les relations Egypte – Catalans et les corsairs au commencement du quinzieme siecle , le caire , 1949.

- L'Egypte au commencement du quinzieme siecle, le Caire , 1950.
- Le Caire vu par les rayageurs accident du mogen ages, tome 24, le caire, 1951.

8) Deeping , histoire du commerce enter le Levant et l'Europe depuis des les craissades, Paris, 1830.
9) 8- E. Ashtor, studies on the Levant trade in the middle ages, London, 1978.
10) Encyclopedia Brittan,(London,1937) vol 18.
11) Encyclopedia for students, the middle ages , U.S. A, 1996.
12) Felix Fabric, le voyage en Egypte, pairs , 1975.
13) Frescobaldi , visit to the holy places on Egypt , Syria, palatsin , Jerusalem, 1948.
14) G. Hill , A history of Cyprus, 3 vols , Cambridge , 1972.
15) Goiteian , A mediterranean socity, London, 1963 .
16) G . wiet , L' Egypte Arabe (histoire de la nation Egyptienne) , iv , Paris, 1937.
17) kammere,Le regiem et le stauts des etrangers en Egypte, tome15, le Caire, 1929.
18) La pidus, Muslim cities in the latter middle ages, London , 1967.
19) M.M Ziada, the foreign relations of Egypt in the 15 century , Liverpool , 1930.
20) pirenne Henri , Eeconomic and Social History of medieval Europ, London , 1936.

21) P.M . Holt, the History of Sudan from the coming of Islam to the present days , London , 1973.
22) Postan, the Cambridge Economic History of Europe, vol 2, Cambridge, 1952.
23) R. Irwin , The middle east in the middle ages, London, 1986.
24) R.S .Lopez, the medieval trade in the Mediterranean world , London , 1955.
25) S.F. Sadeque, Baybars of Egypt, oxford university, 1956.
26) S. lane pool, A History of Egypt in the middle ages, London, 1901.
27) Sidney Painter , A History of the middle ages, new York, 1954.
28) Sydney Fisher, The middle east, U.S.A , 1990.
29) Thenud jean, Le voyage d' autremer de jean thenaud , Paris, 1864.
30) Thompson . G. W ,
- Economic and Social History in the middle ages , vol 1 , New York , 1959.
- History of the middle ages , London , 1931.
31) Von Harff, The pilgrimage of Arnold Von Harff, London, 1946.
32) Wright . G , Te early travels in palstine , London 1848.

obeikandl.com

فهرس المحتويات

الموضوع	رقم الصفحة
•	

تحظى الدراسات الحضارية الآن باهتمام كبير نظرا لما تحتويه من قضايا متنوعة ، فقد كانت الحروب الصليبية هى محور معظم دراسات العصور الوسطى عن منطقة الشرق الأدنى ، وقد اهتم الدارسين والباحثين بالجانب السياسى والعسكرى بين دول المنطقة والعالم الغربى المسيحى ، بينما لم تنل الدراسة الحضارية حظها من التمحيص والبحث ، ولم يكن اهتمام المؤرخين بالقدر الكافى بل كان ذكرهم لها بشكل عابر وعام . ولذا جاءت كتاباتهم عن هذه الناحية غير متكاملة ومبعثرة فى ثنايا الموضوعات المختلفة .

وتتميز الفترة الزمنية موضوع البحث بسمة خاصة وهى اشتعال الصراع الصليبى الإسلامى مرة أخرى ، ولكن بصورة مختلفة عن العصور السابقة ، وكذلك تميزت تلك الفترة بهدوء وسلام بين الدولة المملوكية والمغول ، أدى إلى تغيير فى العلاقات بين الطرفين ، ونتيجة لوجود دولة قوية عسكرية فى منطقة الشرق الأدنى ، فقد كانت تلك الدولة قادرة على

obeikandi.com

التصدى لهجمات عديدة فى جهات مختلفة ، ونظرا للعلاقات القوية والمستمرة بين الدولة المملوكية ودول المنطقة سواء دول آسيوية أو أفريقية أو أوربية ، حيث تضمنت هذه العلاقات النواحى السياسية والاقتصادية والاجتماعية والحربية ، ولذا كان لا بد من وجود جاليات أجنبية فى الديار المصرية أتت لتحقيق أغراض معينة وعلى هذا النحو اتجه اهتمام الباحث بدراسة أحوال الجاليات الأجنبية فى مصر فى العصر المملوكى موضحا طبيعة الوجود الأجنبى فى الديار المصرية إبان فترة الازدهار وفترة الانهيار ، وبعد دراسة لبعض معاجم اللغة العربية تأكدنا أن المقصود بكلمة " أجنبى " هو الشخص الذى لا ينتمى للدولة ولا يتمتع بجنسيتها وعلى هذا الأساس يكون " الأجنبى " هو كل عنصر غير عربى وغير مسلم وغير مصرى.

يعتبر تاريخ الدولة المملوكية تاريخا حافلا بالموضوعات والأفكار المتنوعة الهامة، وذلك لأن هذه الدولة قد تمتعت بعلاقات قوية مع الدول الإسلامية والأجنبية سواء الأوربية أو الأسيوية أو الأفريقية ، نتيجة لظروف وعوامل متعددة فرضت عليها وجود هذه العلاقات القوية ، ولعل أهم هذه العوامل هى الموقع المتميز للدولة المملوكية بين قارتى أوربا وآسيا ، وإلى سياسة حكامها القائمة على تشجيع الأجانب للقدوم إلى الديار المصرية ، والإقامة بها، وكذلك الاهتمام البالغ بالتطور فى النواحى المتعددة ، والذى كان عامل جذب قوى للجاليات الأجنبية ، فأدى ذلك إلى وفود أعداد كبيرة

منهم إلى الموانئ المصرية لتحقيق أغراض عديدة منها أغراض سياسية ، أو اقتصادية ، أو دينية ، أو اجتماعية ، وقد تنوعت الجنسيات الأجنبية القادمة إلى مصر منهم البنادقة ، البيزيين ، الجنويين ، الفرنسيين ، الأسبان ، المغول ، الأرمن ، النوبيين ، الأحباش ، وغيرهم من الجنسيات الأخرى.

وقد حاولت قدر المستطاع الاهتمام فى هذه الدراسة بالحديث عن أحوال هذه الجاليات المتنوعة والمختلفة وتقسيمهم إلى فئات وطوائف ، فمنهم التجار والجواسيس والأسرى والعبيد، موضحة كيفية قدومهم للدولة والإقامة بها وحياتهم فى الدولة والعوامل التى ساهمت فى إقامتهم فى مصر ثم رحيلهم عنها.

ولذا قسمت الدراسة إلى أربعة فصول ، خصصت الأول منها لدراسة العوامل والظروف التى جذبت الأجانب للوفود إلى مصر منذ العصر الفاطمى حتى العصر المملوكى حيث تنوعت هذه الأسباب فمنها عوامل داخلية وعوامل خارجية وعوامل عسكرية وعوامل اجتماعية.

وتناول الفصل الثانى موقف السلطات الحاكمة من الوجود الأجنبى فى مصر شارحا الحقوق والواجبات المفروضة على الأجانب الوافدين سواء كانوا أوربيين أو أسيويين أو أفارقة ، وسواء كانوا أحرارا أو عبيد أو أسرى أو جواسيس ثم وضحت موقف السلطات من الأجانب المقيمين بها إزاء أعمال القرصنة الأوربية على السفن وعلى السواحل المصرية.

ثم خصصت الفصل الثالث لدراسة الحياة الاجتماعية للأجانب فى مصر موضحا الأماكن التى عاشوا فيها ، حيث تنوعت هذه الأماكن وفقا لظروف كل جالية ، فقد عاش الأوربيون فى فنادق خاصة بهم فى الثغور الساحلية ، أما الغير أوربيين قد عاشوا فى طول البلاد وعرضها وانخرطوا فى سلك العسكرية والجندية وتولوا مناصب سياسية وعسكرية هامة ، أما الأسرى فقد عاشوا فى سجون ومعتقلات ، وأما الرقيق بنوعيه الذكور والإناث فقد أقاموا فى قصور السلاطين والحكام ومنازل الأمراء والناس ثم أوضحت العلاقة بين هؤلاء الأجانب بمختلف طوائفهم وبين السلطات الحاكمة وكيفية تعاملهم معهم ثم علاقتهم بالشعب المصرى ومدى تأثير هذه العلاقة على المجتمع.

أما الفصل الرابع فقد جعلته للحديث عن أوضاع الجاليات الأجنبية وأحوالهم فى ظل التدهور العام الذى ساد نهاية العصر المملوكى ونقصد به العصر الجركسى سواء كان هذا التدهور داخليا أو خارجيا والذى ساهم فى قلة أعداد الجاليات الأجنبية فى مصر.

ثم أنهيت الدراسة بخاتمة أجملت فيها أهم النتائج التى توصلت إليها و أهمها أن قوة الدولة الاقتصادية والعسكرية كانت عاملا قويا لجذب الأجانب إلى مصر ، وكذلك لاحظنا أن هذه الجاليات الأجنبية لم تحدث تغييرا واضحا فى المجتمع المصرى ، حيث ظل الشعب المصرى محافظا على عاداته وتقاليده بعيدا عن العادات الأجنبية الوافدة ، ولكن هذا لا يمنع

من وجود دور وتأثير لهؤلاء الأجانب سواء كان تأثيرا إيجابيا أو سلبيا بالإضافة إلى نتائج أخرى ثم ألحقت الدراسة بقائمة المصادر والمراجع والدوريات العربية التى استعنت بها فى إعداد هذه الدراسة.

The cultural studies obtain a great concern because of what they include of various issues ,the Crusade Wars have been the axis of most studies that concerns the near – East region during the middle Ages . Researchers and students have been interested in the political and military affairs among the countries of the region and the Christian western world mean while the cultural studies didn't obtain much -search or check as the historian haven't interested in it enough , They only passed by it generally . As a result their writings concerning this issue have been un integral and scattered in the plaits of their different theme.

The are , that is the main topic of this research , is characterized with a special aspect ; that the crusade Islamic struggle has broken out again but differently from the struggle in the farmer ages . It is also characterized with peace and and tranquility between the Mamlouky country and the Magoles which changed the relation between them. As a result of being a strong military country in the reigon of the Near – East, the Momlouky country has become capable of opposing several

attacks from different directions . Because of the constant and strong relations between the Momlouky country ant the other countries of the region : The African , Aisian or the European countries in the Egyptian provinces that came to achieve certain purposes , thus the researcher has interested in studying the affairs of the foreigner communities in Egypt during the Mamlouk ages in order to clarify the nature of the foreign existence in Egypt during the prosperity and falling down periods , After studying Arabic dictionaries we have been assured that the meaning of the word 'foreigner' is some body who doesn't belong to the country and hasn't its nationality , on that base 'foreigner ' in this research means every non Arabian non moslim and non Egyptian element.

The history of the Mumluk's country is full of different important ideas and topics . Because this country has enjoyed strong relationships with foreign and Islamic countries whether European, Asian or African as a result of several factors which lead to these strong relationships.

The most important of these factors are , firstly , the significant location of the Mumluk's country between the two continents , Asia and Europe .Secondly, the policy of its leaders which is based on encouraging foreigners to come to Egypt and stay in it .Also, the great concern of development and progress in several

fields which was a strong attractive factor to the foreign communities which encourages them to come in large numbers to the Egyptian ports to achieve several goals , whether religious, political or economic, different foreign nationalities come to Egypt such as Venice, Pizzaian , French, Spanish, Armenian, Mangoles, Sudanese and others

In this study . I do my best to talke about these different communities and I divided them into different groups, either merchants, spiers, captives and servants. I clarified how they come to the country and how they stay and live. I explained the factors which helped them to stay in Egypt and then to depant

So, I divided this study in to four chapters the first is about the factors and the circumstances which attracted the foreigners to come to Egypt since the fatimid era to the Mamluks era. These factors are either internal, external , Military or social

The second chapter is about the situation of the ruler authorities from the foreign existence in Egypt, explaining the rights and the duties of the foreigners either European, Asian or African and either they were free, servants , captives or spires . Then I explained the situation of the ruler authorities in Egypt from the foreigners about the European pirate an the Egyptian beaches.

Obeikandi.com

The third chapter is about the social life of the foreigners in Egypt, clearing the places in which they hive as they were different according to the circumstances of every community. The Europeans lived in hotels in the coastal towns . But the non-European lived in the whole country and worked as soldiers , And had important military and political posts . the captives lived in different prisons and jails . The slaves whether males or females lived in the Egyptian houses and in the places of the leaders and princes , Then , I explained the relationship between these foreigners and the ruler authorities and how they dealed with them and their relationship with the Egyptian people and the effect of this relationship on the Egyptian society.

The Fourth chapter is about the circumstances of the foreign communities under the general collapse which prevailed the end of the Mumluk era , and it is era whether internal or external and this leads to minimize the numbers of the foreign communities in Egypt , I concluded the study by an end which in plies the most important results , the most important of which was that the military and the economic power of the country was a strong factor to attract several nationalities to come to Egypt . These nationalities don't make any clear change in the Egyptian society as the Egyptian people remained a way from the foreigners and was not affected by them. but this doesn't prevent

those foreigners to have a role and an effect whether positive or negative. In addition to other results, I included the study with sources menu and the foreign and Arab magazine which helped me in preparing this stusy.

obeikandl.com